الشبح القاتل

مغامرات أرسين لوبين

الشبح القاتل

الكاتب الفرنسي المعروف
موريس لبلان

ترجمة
يوسف أبو الحجاج

قصر الأميرة النائمة

عرف راوول دابنياك وهو على قمة المرتفع المطل فوق الأسطح الداكنة لبيو يونرفيل فكفت يده عن توترها فوق مجلة القيادة.

كان الريف يترامى أمامه فى هدوء. ورأى على يمينه، خلال هذه الانفراجات نهر السين، وعلى يساره شاطئا صخرياً مرتفعاً راح يردد صوت محرك سيارته ذات الأربعين حصاناً.... أربع ساعات وهو يطوى الأرض منذ أن غادر باريس، انفجرت أثناءها إحدى عجلاته. وما هى إلا لحظة حتى امتلأت شوارع البلدة الهادئة بالضجيج، وانعطفت السيارة إلى ممر جانبى وراحت تتأرجح فوق أرض صلبة، وأطفأ راوول مصابيحه وانطلق بضعة أمتار فى طريق تحفه الأشجار ثم أوقف سيارته.

وتخلص فى حركات سريعة من نظارته وقلنسوته ووشاحه ثم هبط إلى الأرض وهو يقول:

– آه ما لا ريب أننى فى حالة يرثى لها.

ومس ياقته وشد جاكتته وتثاءب... وكان القمر هلالاً يلقى بنوره الباهت على النباتات والأعشاب. وعاد راوول يقول:

– والآن، إلى **الفصل الأول**.

وانطلق فى درب يمتد عبر رابية من الحجر الجيرى يقوم على قمتها هيكل برج متهدم تحت سماء تنتشر فيها النجوم، وكلما تقدم في طريقه كلما امتد نهر السين أمامه، براقا يكاد الضباب يكسوه.... وفى أعلى الطريق، فى الساحل المواجه، بضعة أنوار متراقصة تشير إلى مدينة تانكارفيل، وكان ميناء هونفلور يقع هناك، خلف البرج المتهدم..... وراح راوول يرتقى الطريق فى غير جهد أو مشقة، وبلغ سور القصر الذى يكاد ينهار وتسلل إلى فناء داخلى وأشعل قداحته مرتين.... وظهر فى جوف الظلام الذى يكسد أسفل البرج نور خافت أضاء مرتين.....

وانتظر راوول ولم يلبث أن ظهر بجواره شبح يقول :

– أهذا أنت أيها الزعيم؟

– بلحمه وشحمه.

– كان يجب أن تأتى مساء أمس.

– أخرتنى بعض المشاغل.... مبارزة وإفطار فى سفارة إنجلترا وتنظيف السيارة وتشحيمها.... ضرورات النبالة يا عزيزى.

أمسك راوول بذراع صاحبه وقال فى صوت صارم:

– وتملكك الخوف أثناء ذلك أيها الأحمق!

قلت لنفسك إن ا لزعيم يتردد وإنه يجد المسألة أشد خطورة مما يظن وأنه تراجع اعترف أن ذلك ما كان ليضيرك..... يا لك من شجاع!

– أؤكد لك أيها الزعيم....

– طبعاً، طبعاً يا صغيرى برونو... أنت لم ترتعد قط لحظة واحدة.. لم يخطر لك أبداً أن تقول لنفسك إن الزعيم يتمادى، وإن البوليس سوف يلقى القبض عليه ذات يوم وعندئذ تنتهى أيامنا فى زنزانة ضيقة رطبة.

وضحك ضحكة فتية رنانة سرت عدواها إلى برونو فابتسم بدوره وقد أخجلته تلك الطاقة العجيبة التى تنبعث من راوول دابنياك وتمتم يقول: هذا صحيح... أحياناً يتسرب الشك إلى قلبى.

أطبقت يد راوول على ذراعه كفخ من الصلب وقال:

– إننى أمنعك من الشك.... حتى إذا اختفيت.... يوما أو شهرا

أو سنة.... فمهما يحدث فسوف أكون هنا بعد ذلك.... هل تسمع؟ سوف أكون بجوارك.... لا يمكن أن يقع لك شيء... هيا، تقدم يا صغيرى وقم بواجبات صاحب البيت... تقدمنى يا مولاى.

امتثل برونو وقد غلبته لهجة راوول الساخرة ومضى نحو آخر الفناء وهو يقول:

– احترس من الباب أيها الزعيم... يجب أن تخفض رأسك والآن، أمامنا إحدى وتسعون درجة.

وأضاء مصباحا كهربيا وأرسل شعاعه نحو الدرجات الحجرية القديمة.... وقال راوول:

– آه إن المكان جميل.... وإن كان بسيطا بعض الشيء.

ارتقى الدرجات فى خفة ورشاقة أمام برونو الذى تسارعت أنفاسه.

– تقريرك الآن يا صغيرى.... كم رجلًا بالقصر؟

– ثلاثة..... وأحدهم يبدو مسنا جدا.. لعله الحارس أو كبير الخدم.

– والآخران.

– فى عنفوان الشباب.... صاحب القصر وسائقه.

– ومن غيرهم؟

– لا تتعجلنى هكذا أيها الزعيم.... لا أدرى مم صنعت ساقاك، فإننى لم أعد أستطيع أن أتبعك.. هناك الطاهية، وهى بين الأربعين الخمسين من العمر، وطفلتان..... أعنى فتاة وصبية.... الأولى في السابعة عشرة من عمرها والثانية فى العاشرة تقريباً.

– أهما أختان؟ ابنتا صاحب القصر؟

– آوه، كلا، كلا طبعا.... الفتاة، نعم.... أما الصبية فأعتقد أنها قريبة للعجوز لأنها تقضى كل وقتها معه.

– وزوجة صاحب القصر؟

– ليست هناك زوجة.... أظن أنه أرمل.

– وأين يرقد الجميع؟

– في الطابق الأول... صاحب القصر والفتاة فى الجناح الأوسط.... والسائق والطاهية، وهما زوجان على ما أعتقد، فى الجناح الأيسر... أما العجوز والصبية ففى كوخ صغير منعزل.... وقال برونو مازحاً:

– هذا هو مقر قيادتى العامة.

وأضاء الأغطية الملقاة فوق الأرض، وبقايا وجبة من الطعام، وقال وهو يفخم فى صوته كما يفعل المرشد:

– والآن إلى الاستكشاف.

أخذ راوول المصباح الكهربى من يده وأطفأه وهو يقول:

– مهلاً يا صغيري... لا أنوار في غير مناسباتها... هل معك المنظار الصغير؟

– ها هو.

وبدأ راوول دابنياك الاستكشاف، وكان قصر يونرفيل يقع على يمينه، وتبين على الفور هيئته الضخمة وأسطحه المعقدة التى ينعكس عليها ضوء القمر ويجعلها تبدو بلون الفضة... وألقى نظرة طويلة عبر المنظار ثم قال يسأل:

– وما الذي يلمع هناك، على يسار الباب الحديدى؟.

أجاب برونو: إنها البئر.... هناك بئر في ثخانة الجدار، ولا ريب أنك ترى الدلو فوق الحلقة؟

– وهل هناك كلاب؟

– بولدوج واحد يرافق الفتاة دائماً.

– أيطلقونه أثناء الليل؟

– كلا.

– هل أنت واثق؟

– ما كنت إلا لأراه. أؤكد لك أنه يبيت في البيت.

ولأن صوته بطريقة تكاد لا تلحظ فقال راوول:

– آه... أرى أنك مازلت خائفا... ما الذي تخشاه؟

– لا شيء..... غاية ما في الأمر أننى أوثر أن نفرغ الليلة... عندما يدور بذهنى أننا قد نضطر لإعادة الكرة.

– يا لك من جبان..... لو أننى تركتك تفعل فإنك تستولى على أي شيء كيفما اتفق، ودون أن تفكر في الاختيار... تجمع الفضيات والمجوهرات ثم تبادر بالفرار كأى لص عادى عجبا! ولكن من تظننى؟ إنني من هواة جمع التحف والنفائس... ومنذ ثلاثة أسابيع وأنا أدرس هذه العملية وأرسم الخطط وأضع النقاط الأخيرة...

بل إننى ذهبت إلى وزارة الفنون وتحريت كل شيء... وقد علمت في الوزارة أن هناك بعض الشبهات حول صحة بعض اللوحات.

فلوحة ناتييه مزيفة، ولا ريب في ذلك.. والمكتب البديع المهور

بتوقيع برسييه فونتيه ما هو إلا تقليد متقن، فقد وقع في يدى تقرير الخبير وهو تقرير دقيق مرفق به رسم مفصل لأن الدولة أوشكت أن تشترى القصر هل تريد أن أخبرك أين توجد فاترينة النياشين والميداليات؟ فى آخر المعرض...

ومجموعة الأختام؟ فى وسط القاعة، أمام لوحتى فراجونار ولاتـور.... هكذا يجب أن يسأل كل من يتذوق الفن ويهوى جمع التحف والنفائس.

وعبر وجه راوول المائل نحو وجه برونو عن جرأة هادئة تشوبها السخرية، وأحاط رووال كتفى الشاب بذراعه وقال يخاطبه:

– اعلم يا صغيرى أن أرسين لوبين يختار وينتقى وأنه لا يرضى ببضاعة لاتباع كما يفعل أصحاب الملايين الأمريكيون.. إننى أتفقد المكان أولا ثم آخذ ما يروق لى فيما بعد.

وكان يبتسم فى هدوء وهو شديد الثقة من نفسه بحيث إن برونو هتف يقول:

–حسنا.. هيا بنا أيها الزعيم.

– مازال أمامنا متسع من الوقت يا صغيرى.. إذا آثرت الحياة الأخرى، وإذا أردت أن تكون الشاب الوسيم الذى يدفع الأرملة

الثرية ويجمع التبرعات فى قداس الكنيسة سان هوبير فأنت وشأنك.

– كلا أيها الزعيم... إنما كنت أعنى...

– عندما تواتى الفرصة شابا مثلك لكى يكون جنتلمانا حقيقياً فله الحق فى أن يتردد.

– أؤكد لك أننى لا أتردد.

وعندئذ تمتم راوول فى قوة مكبوتة غمرت برونو كفيض من السعادة فقال:

– إذا كان الأمر كذلك فهلم بنا.

وهبطا درجات السلم مسرعين واجتازا ضربا من الأرخن نبت فيها نوع من العشب النادر جففته الشمس... وكانت السحب تمر من وقت لآخر وتغطيها بظلالها.

– أظن أن العجوز هو الذى يغلق الباب الحديدى ويرفع المزاليج؟

– أجل.

– وأظنه يقوم بعمله هذا بكل دقة؟

– هو؟ إنه لكفيل بأن يغلق الباب مرتين إذا استطاع، وصدقنى إننى قضيت وقتاً طويلاً في مراقبته.

- وهل يفد إلى القصر أناس كثيرون؟
- لا أحد فيما عدا بعض الموردين.
- وأهل القصر؟ هل يخرجون؟
- سيد القصر، نعم.... فهو يخرج بانتظام فى سيارته مع سائقه أما الآخرون فلا يتحركون تقريباً

تابع الرجلان طريقهما فى صمت.. وكان برونو يفحص راوول خلسة.. وكان هذا الأخير يرتدى ثياب المدينة ويضع زهرة فى عروة جاكتته ويبدو أنه خرج فى التو من أحد فنادق حى سان جرمان.. وكانت هذه النزهة الليلية برفقة ذلك الشاب المتأنق شيئاً غريباً ومذهلاً وعجيباً بحيث إن برونو مر بيديه أمام عينيه....

كلا....كان النظر حقيقياً وكان قصر يونرفيل هناك، أمامهما، وقد تناثرت فوق أسطحه المداخن ودورات الهواء وواقيات الصواعق... وقال راوول:

- إنه يرجع إلى عصر النهضة، وهو قصر جميل، ولكنى لا أحب كثيرا هذا الجناح الذى تدل هيئته عنى أنه بنى فى عصر لويس الثالث عشر.

وتقدما بمحاذاة الجدار الذى يفضى إلى الباب الحديدى العمومى

واكتشفا البئر، وهى بئر قديمة نحتت فى ثخانة السور بحيث كان يمكن استخدامها من ا لخا رج ومن الداخل على السواء.. وكان هناك سياج حديدى يفصلها إلى جزئين، ولم يتردد راوول ووثب فوق حلقة البئر ولمس قمة السياج بأصبعه، ثم وبخفة عجيبة ارتفع فى صمت واختفى فى الناحية الأخرى، وصفير خافت نبه برونو أن الطريق خال، وما هى إلا لحظات حتى كان الشاب قد اجتاز العقبة بدوره.

وهمس راوول: ألم تجد مشقة ما؟

- كلا أيها الزعيم.

واستطاعا عندئذ أن يتبينا بصورة أفضل موضع المباني، ففي آخر فناء فسيح يقوم القصر نفسه وعلى جانبيه جناحان يعتدان حتى الباب الحديدى كضلعى مثلث.. أما ساحة الشرف ببلاطها الكبير اللامع فكانت أشبه بمستنقع هادئ... وترك راوول كنف الحائط وخرج إلى النور فهمس برونو:

- سوف يروننا.

- وبعد؟.... ليس لدينا نوايا سيئة.. إننا قدمنا لمشاهدة مجموعة التحف كما يفعل السياح.

ومضى راوول نحو باب القصر ولكن برونو أسرع يقول:

من الأوفق أن ندخل عن طريق المطبخ.

- عن طريق المطبخ؟

كالبدال أو صبى الجزار؟

تأدب يا بنى.. ارفع رأسك يابرونو.... لا تنس مركزك ولامركزى، فأنت مع دابنياك.

وضحك تلك الضحكة الفتية التى طالما أثارت حيرة سامعيه وفرقع أصابعه فى غير اكتراث وارتقى الدرجات الأمامية للقصر... ولمست يداه القفل لحظة عابرة ثم قال:

- ليس هناك مانع.

وفى اللحظة التالية كانا فى الردهة، وأعاد راوول أداته إلى جيبه وهمس قائلاً:

- أمسك بكتفى.

وفى بطء تقدما الواحد بعد الآخر فى الظلام وسط صمت مطبق.. بل إنهما لم يسمعا عمل الديدان الغامض فى خشب الجدران القديم.. كان كل شىء فى البيت ينام نوما عميقا... وتوقف راوول ومال فوق أذن برونو وقال:

- احترس.. هذا هو السلم.

ووضع قدمه على أول درجة وأحس بأنها تلين قليلاً، وفجأة ومن مسافة بدت له بعيدا جدا ارتفع رنين جرس راح يدوى فى إصرار.. وقال راوول:

- اللعنة! جرس إنذار!

وراحا يصغيان وقد تجمدا فى مكانهما.. واستمر الجرس، فوق يدوى دويه المكتوم، أشبه برنين جرس منبه صغير.

وتمتم برونو متلعثما :

فلننصرف!

- اسكت أيها الغبى.

راح ذهن راوول يعمل فى سرعة مدهشة... وأخذ يفكر وقد توترت أعصابه وضم قبضته فى حين استمر الجرس فى دويه الصارخ عبر غرف القصر الصامتة.

وعاد برونو يقول:

فلننصرف.

قال راوول فى لهجة جافة:

أتريد أن تهرب كالأرنب؟

– ولكن.... إنهم سوف يأتون.

– لن يأتوا فورا فهم أكثر منك خوفاً وذعراً.... وقبل أن يستقر منهم العزم وأضاء راوول مصباحه الكهربى وسلط شعاعه نحو باب الردهة، وقال:

– انتظر على عتبة الباب... عتبة الباب، مفهوم؟

لا أحد يستطيع أن يراك من فوق... وعند أول سحابة، عليك أن تتسلل بطول الحائط حتى البئر حيث تقوم بالمراقبة... وإذا رأيت أى شىء غير عادى فقلد ما تريد من الأصوات ثم بادر بالفرار.

– صوت البومة؟

– إذا شئت. وسألحق بك عند البرج.

– وأنت أيها الزعيم؟ والكلب؟ سأتكفل به.... امض وأسرع.

وفى بضع خطوات سريعة بلغ برونو آخر الردهة.... وأطفأ راوول مصباحه وكان جرس الإنذار لا يزال يصلصل فى إصرار وبدون توقف، ولكن لم يتحرك شىء ولم ينبح الكلب.. ولو أن أحداً ما سار فى الطابق الأول لطقطقت الأرضية الخشبية القديمة دون ريب.. وعلى

كل حال لو أن سيد القصر صحا من نومه فجأة لأضاء النور كان يجب منطقياً أن يحدث شيء ما.. أو أى صوت.. وأن لا يستمر هذا الصمت المخيف الذى يزيد فى رهبته صليل الجرس المستمر.

ارتقى راوول السلم وهو يتوخى الحذر الشديد... أين الكلب؟

ألن يهجم عليه فجأة وينشب أظافره فى عنقه؟

وأى فخ منصوب في غرف الطابق الأول التى يملؤها الجرس برنينه المتتابع الذى لا ينقطع؟

وجفف راوول وجهه.. كان من الجنون أن يستمر في صعوده، ومع ذلك فقد استمر، محدودب الكتفين متوقعاً فى كل لحظة أن يتلقى رصاصا تنفجر فى وجهه.. والتقت يداه بباب ثم بآخر.. كانت البسطة كبيرة ممتدة والاستكشاف الأعمى لا ينتهى.

وتمتم راوول يحدث نفسه:

هيا يا ماركيز، واجه العدو والابتسامة على شفتيك.

وأضاء مصباحه الكهربى من جديد، وردد نوره فى كل الأرجاء، كانت البسطة مقفرة.. وشيئاً فشيئاً استولى عليه غضب بارد... كان الجرس لا يزال فى رأسه وفى أعصابه.. وسار وهو يضرب الأرض بكعبيه نحو باب الغرفة التى ينبعث منها رنين ا لجرس وفتحه وكشف

نور الصباح فرشا ضخماً وامتد حتى الوسادة وتوقف على وجه جامد شاحب... وتمتم راوول:

يا للشيطان!.. إن العميل ليس وسيما.

كان الرجل أصلع، له حاجبان كثيفان شقراوان يكادان يخفيان عينيه الطبقتين ويكسبانه سمة غريبة قاسية... وتقدم راوول منه وقال:

– هل تسمح أيها الأمير؟

ورفع الغطاء، كاشفا عن صدر مشعر، وفجأة انفجر ضاحكا حتى كاد أن يختنق، وتحرر من توتر أعصابه مرة واحدة وتمتم يقول وهو يضغط على مفتاح الأباجورة التى بجوار الفراش:

– التمس معذرتك، واسمح لى أن أقدم نفسى:

راوول دابنياك، من نبلاء جسكونيا.. ألاتعرفه؟

وأرسين لوبين، هل تعرفه؟

جرس الإنذار هذا مزعج، أليس كذلك؟

لعلنا نستطيع إسكاته.... كلا.... كلا، لا تزعج نفسك أيها الصديق العزيز.. إن أجرا س الإنذار ليست بغريبة على.. أرأيت؟

هذا أفضل.. إذن فأنت ترفض أن تستيقظ لكى لا تضايق هذا

العنين لوبين.

وإذا توقف رنين الجرس دوى صوته هو فى أرجاء الغرفة بطريقة غريبة.. وأسرع فخافت من صوته وهو يقول:

– ولكن إذا كنا لا نصحو فلماذا هذا الجرس؟ هذا أمر لا يقره المنطق.

ورفع جفن النائم بأصبعه ثم قال:

– مخدر.. فهمت الآن.. أنت إذن تعانى من أشجان خاصة وتريد أن تنسى كل شيء.

كان يهزل ولكن عينيه كانتا تتفحصان الغرفة وتلاحظان كل نقطة: جلود الدب المفروشة على الأرض وقطع الأثاث الثمينة ومقياس الوقت المصنوع من الذهب الخالص فوق الطاولة، وبجواره محفظة ضخمة من الجلد الروسى.. وفتح المحفظة ثم قال:

– كلا.. كلا.. لن أستغل ضيافتك لى.. ثم إن النقود لم تعد تهمنى.

ووجد بطاقات زيارة ورسائل وأوراق باسم هوبير فيرانج.. وقال وهو ينظر إلى الرجل الضخم ذى الحاجبين الشرسين:

– هذا جميل يا هوبير.... إن آل هوبير هم فى الخالة قوم سلسوا

القيادة معتدلوا المزاج.

وأعاد المحفظة مكانها وفتح درج الطاولة واستطرد يقول وهو يخرج مسدسا ضخماً من طراز سميث وويسون له ماسورة قصيرة:

– وهم يرحبون بالضيوف ومرحون.. ولكنهم متكتمون فى بعض الأحيان، ومن الأوفق أن تصادقهم بدلاً من أن تعاديهم.. ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه اللعبة بحق الشيطان يا صاحبي العزيز؟

إن موسم الصيد قد انتهى، وغليوم[1] لم يعلن علينا الحرب بعد.

وأعاد السدس إلى الدرج وتحول إلى الباب المفتوح وأصغى لحظة.

– ألم تسمع شيئاً ياهوبير؟ خيل لى..

وأطفأ الأباجورة.. أكان برونو هو الذى أطلق هذه الصرخة؟

وداخله إحساس شرس.... قاس بأنه ليس وحده فى القصر وأن زائرا آخر يتنقل فى مكان ما فى ظلمات الطرقات والغرف.... شخص حرص قبل أن يستكشف القصر على أن يخدر الجميع، وابتداء من سيد القصر حتى الخدم.. وهمس يقول محدثاً نفسه:

– لا تتحرك.

(١) غليوم الثاني.... تدور أحداث هذه الرواية في يونيه سنة ١٩١٤م.

وأسرع إلى البسطة وهو صامت كالشبح، وانحنى فوق الدرابزين الحجرى، ولكنه لم يسمع غير الدم الذى يدوى فى عروقه.. وأضاء مصباحه الكهربى من جديد وفتح غرفة أخرى وما كاد يفعل حتى ارتد إلى الوراء على الفور... الكلب! البولدوج!

ولكن الحيوان كان ممددا على صدره وخطمه بين قائمتيه، ولم يبد أية حركة.. وانحنى راوول وحك رأسه، بين الأذنين.

– كلب ذكى.. لقد عرف السيد..

كانت الحدقة ثابتة ومتسعة تحت الجفن المحتقن شيئاً ما.... غلب المخدر الكلب وبقى فى وضع المترصد، كاشفا عن أسنانه... واعتدل راوول وسلط أشعة مصباحه على الجدران والسجادة والطاولة والفراش، وللمرة الثانية وقف مشدوها، وارتسمت على شفتيه ابتسامة كأنه لا يصدق ما يراه.. وتقدم ثلاث خطوات ثم توقف مفتونا، فإن شعاع المصباح المائل إلى الزرقة أضاء وجها جميلا يجثم فى جوف عش من الشعر الأشقر... ما عمرها؟

سبعة عشر عاماً، استناداً إلى قول برونو؟ ولكن من يراها لا يعطيها أكثر من خمسة عشر عاماً على الأكثر.. الأهداب السمراء مسدلة بطريقة ساحرة وخيل لراوول أنها سترتفع فجأة وأن عينين واسعتين

بنفسجيتين ستتفتحان تنظران إليه فى مودة ورفق.... ذراع من ذراعيها البيضاوين أفلت وتدلى بطول الغطاء..... وبقى راوول منحنيا فوق الفراش، مسحورا ومفتونا.. وتمتم يقول أخيراً:

– ماذا دهاك يالوبين... أفى مثل سنك هذا؟

كان يحاول أن يمزح.. بيد أن صوته كان يرتجف لفرط ما يعانيه من انفعال.. هل يمكن بعد كل تلك المغامرات وكل تلك اللقاءات؟

– ما هذا يالوبين؟

أنت ترى تماماً أنها فتاة صغيرة.

وانبعث من الوسادة عطر جميل.. لم يتأمل راوول أبدا مثل هذا الجمال ومثل هذا الشباب الساحر الغض.... ومد يده فى حياء وهو يقول:

– أيتها الفتاة المجهولة.. أنت جميلة.. لكم أود فى هذه اللحظة أن أطوف بأحلامك.

وأردف يقول على الفور:

– إنك لخبيث ياماركيز.. أيمكنك أن تتصابى بشعرك الذى وخطه المشيب والغضون التى بدأت تظهر فى ركنى عينيك؟

واستولى عليه الاضطراب ولم يستطع أن يحول بصره عن الوجه النضر... ولم يتمالك نفسه أخيراً فانحنى قائلاً:

– على ركبتيك يالوبين، أمام البراءة والفضيلة.. الحسناء والوحش.

وأخذ يد الفتاة ورفعها إلى شفتيه ثم أطفأ مصباحه وارتد فى هدوء وخرج من الغرفة.

لو ألتقى بالوحش الذى سمح لنفسه.....

لأنه لم يكن هناك أى مجال للشك، فهناك رجل آخر فى القصر... رجل يهوى جمع التحف هو أيضاً... ولكن كيف تمكن من خداع يقظة برونو؟ آه، البئر طبعاً!

إن فى مقدور أى شخص أن يلقى أثناء مرورة مخدرا فى الدلو.. ولاريب أن اللص فى العرض الآن يختار وينتقى فى هدوء.

اجتاز راوول الطرقة التى تمتد حتى البسطة وتؤدى إلى الجناح الأيمن، وكان الضوء الباهت الذى يتسرب من خلال النوافذ المرتفعة يكفى لكى يوجه خطواته.. من أين دخل الرجل الغريب؟ لاريب عن طريق قبو أو طريق المطبخ وسلم آخر مادام جرس الإنذار لم يرسل صليله، ولاريب أنه يعرف كل مسالك القصر.

وكان المعرض يقع بعد الطرقة مباشرة، وأضاء راوول الباب ذا

المصراعين وأدار الأكرة فجأة، وأصدر الباب صريراً بغيضاً... وأدار نور المصباح فى أرجاء العرض، لكن لم يكن هناك أحد.

طاف راوول بالقاعة الفسيحة، ونسى على الفور قلقه واضطرابه، فقد كان العرض حافلا بالروائع والنفائس.. وتمتم يقول:

- ولكن لابد من ساعات لتقييم كل هذا.. فهذه اللوحة لمانتينا، وهذه للارجيلير.. ولكن هذه اللوحة التى تمثل القديس جان بابتيست والمهورة.... بتوقيع دى فنسى تبدو لى مزيفة.. وإنى لأفهم الآن شكوك وزارة الفنون.

وسلط ضوء مصباحه على منضدة صغيرة وانعكس الضوء على تحف ثمينة:

آه.. هاهى حقة القربان المشهورة.... وصندوق المخلفات الذى يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر.

وفاض به إحساسه بعظمته، فقد دبر كل شىء وهو فى مسكنه بباريس، دون أن يرى شيئاً، وإنما مكتفياً بمعاينة الكتالوجات والبطاقات، بيد أنه أصبح الآن سيد هذه النفائس.. مجرد حركة واحدة منه وتنقل إلى مصائر جديدة جديرة بها.

وأجفل فجأة.. لايمكن أن يكون هناك أى خطأ هذه المرة.. كانت

صرخة البومة حقاً.. وأرهف أذنيه وسمع للمرة الثانية الصرخة في وضوح.. لاريب أن برونو، وهو فى مكمنه، قد رأى الزائر الخفى.

ألصق راوول وجهه بأقرب نافذة، وأجفل وهو يرى المنظر المذهل الذى يطالعه من خلال الشرائح الخشبية لمصراعى النافذة.. رأى ثلاثة أشباح تجتاز الفناء فى طريقها إلى الباب الحديدى، وكان يبدو أنهم قادمون من الجناح الأيسر للقصر ويتحركون بسرعة.. وكان أحدهم يمشى فى القدمة أما الآخران فكانا يحملان حملا ثقيلا له هيئة رجل ملفوف فى غطاء.. وأحس راوول بالعرق يتصبب من كل كيانه.... اللعنة.. اللعنة! بينما كان واقفا يتأمل مجموعة النفائس كان الآخرون يختطفون..

وأسرع إلى الطرقة ودفع باب غرفة هوبير فيرانج.. كان سيد القصر يرقد فى هدوء.. الفتاة إذن؟

كلا.. كانت راقدة هى الأخرى وذراعها لا يزال على حالته... من إذن؟ خادم؟

وهبط السلم مسرعا واجتاز الردهة... كان الرجال الثلاثة يتسللون محتمين بظل الجدار بجوار الباب الحديدى..... وأغلق راوول الباب خلفه.. ومرت سحابة لفت الفناء بظلمة مواتية، فاندفع يجرى.

أما الرجال الثلاثة فبدلا من أن يخرجوا إلى الطريق راحوا يسيرون بمحاذاة الباب الحديدى، وتجاوزوا الجناح الأيمن ودلفوا إلى البستان، وغابوا عن بصر راوول بعد ذلك مباشرة، ولكن كان من السهل عليه الاهتداء إلى مكانهم من وقع خطواتهم.. وتجاوز زاوية القصر بدوره وتوجه نحو الأحراش والأشجار.... ورأى المجهولين الغامضين وهم يغادرون القصر من باب صغير... واجتاز خلفهم دربا وتغلغل فى دغل صغير يمتد حتى نهر السين.. ولم تكن هناك طرقات ممهدة فى تلك الناحية.. لم يكن هناك غير النهر.

– عسى ألا يهربوا فى قارب.

ازدادت الأرض انحدارا، وفجأة انتهى الدغل، وبدأت بعدها بقعة منحدرة من المستحيل عبورها دون أن ينكشف أمره... وفكر راوول:

إنهم سيعبرون البحر.

وسمع صوت ارتطام مجداف بأرضيه قارب ثم صرير سلسلة، ورأى على سطح الماء البراق تموجات دوامة، ولم يلبث القارب أن ابتعد عن الشاطئ. ورأى رجلاً يجدف بمحاذاة الشاطئ، ضخم الجسم، له رأس مربعة متداخلة بين كتفيه وآخر جالسا فى المقدمة، وكان قصيرا ومشوها، أما الثالث فكان منحنيا فى آخر القارب.

تنهد راوول فى ارتياح، فإن القارب لم يدخل عرض البحر وإنما كان يتقدم بطول الساحل، وما كانت رؤيته لتثير دهشة أحد فى تلك الساعة فإن الصيادين الشرفاء يخرجون فى وقت مبكر فى شهر يونية ويمضون لأماكنهم المفضلة قبل الفجر.

وتقدم راوول فى طريق ضيق يتعرج خلال صخور الشاطئ... وكان القارب يختفى من وقت لآخر خلف باقة من الخضرة أو مرتفع من الأرض، ولكنه كان لا يلبث أن يظهر من جديد، كتلة داكنة تظهر في وضوح فوق حصيرة النهر الفضية وكان الطريق يزداد ارتفاعا ما بين لحظة وأخرى، وكانت المسافة تزداد بين راوول والقارب.... وقال:

– لعلى أخطأت..... ربما كان يجب أن أتدخل دون انتظار.

وهناك، كان القارب يقترب من ثلاث شجرات من أشجار الصفصاف الضخمة، اختفى خلفها شيئاً فشيئاً.. وجرى راوول ثم وقف.

– آه. ولكن ماذا يفعلون؟

ذلك أن القارب اختفى نهائياً ولم يظهر.

وتقدم بضع خطوات وهو بادى الحيرة ثم توقف من جديد.. وفجأة كتم نفسه، فقد برز القارب من خلف الأشجار فى بطء... ولكنه

كان شاغرا.. شاغرا تماما، ولم يلبث أن توقف وقد شده حبل المرساة.

والرجال؟ أين ذهبوا؟ لم يكن فى مقدورهم الهبوط لأن الشاطئ كان عبارة عن صخور ملساء، وجذور الأشجار نفسها تكمن فى قلب التل الذى يهيمن على السين من عل.. وترك راوول الدرب وتقدم حتى الهضبة التى تنحدر فيها الأرض حتى النهر.. ومن مكانه تبين فى وضوح من خلال الأغصان بريق الماء الشاحب وتمتم يقول:

– ما معنى هذا؟

إنه لأشبه بعمل من أعمال الشيطان!

وحتى على افتراض أن أصحابنا الثلاثة الغامضين أفلحوا فى الهبوط إلى الأرض فأين ذهبوا بعد ذلك؟ إن الجرف المنحدر يمتد نحو مائة متر، وهو عار وأملس كاليد يكاد يلمع تحت نور القمر ولكن ماذا حدث للجسد؟

إنهم ألقوه فى النهر فما كان راوول إلا ليسمع صوت ارتطامه بالماء.. إذن؟ لايمكن أن يكون الرجال الثلاثة وضحيتهم إلا تحت الأشجار الثلاثة، ومع ذلك فقد كان راوول واثقاً أن أغصانها لا تخفى أحداً.. وسار فى بطء بجوار الهضبة مترددا لايدرى ماذا يفعل، فإنه إذا حاول أن يهبط حتى النهر فإنه يغامر بأن يعرض نفسه لهلاك أكيد، ثم، ما

الجدوى فى أن يتأمل عن كثب هذا القارب الفارغ.

وجلس ليبعد بأكثر من خمسين مترا، وكان يرى فى وضوح انعكاس سلسلته وبركة صغيرة من الماء بين الألواح.

وتجمد دمه فجأة فقد ارتفع أنين بجواره... وصرخة مكتومة.. فأدار رأسه ولكنه لم ير أحداً.... كانت الهضبة خاوية، على بعد امتداد البصر... لعلها الريا؟

كلا.... لم تكن هناك نسمة واحدة.

– ماذا دهاك ياماركيز؟

إنك أصبحت تتخيل أشياء.

ولكن الصرخة عادت من جديد، وكانت هذه المرة طويلة تدل على أن صاحبها يتألم كل الألم، ووثب راوول على قدميه.... هل هذا ممكن؟ لم يكن بالهضبة أحد على امتداد البصر.. لم تصدر الصرخة من الأشجار، بل كانت أقرب بكثير.... بدا أنها تصدر من جوف الأرض.. صرخة رجل يتعذب تبعتها تمتمة أصوات.. وكان الانطباع قويا بحيث إن راوول دار حول نفسه مرة واحدة، وأحس بخوف مستتر لم يستطع التغلب عليه... وثارت أعصابه.. كان قد واجه خلال حياته الحافلة بالمغامرات أخطارا جمة، ولكن لعله لم يجد نفسه أبدا فى مثل هذا الوقف

الشديد الغرابة.

وسمع صاحب الصوت يقول متضرعا:

– كفى.. كفى.. النجدة. كان الصوت يبدو بعيدا، يأتي من مسافة بعيدة عن الواقع، كصوت فى آخر خط تليفونى ويبدو قريبا في نفس الوقت كان يتولد فى الهوا ء بطريقة غامضة.. وصاح الصوت:

– النجدة.. كفى.. كفى.

امتقع لون راوول وضم قبضته ودار حول نفسه والعرق يتصبب من جبينه وارتفعت من جوف الأرض حشرجة رهيبة أعقبها على الفور صوت خشن قاس يقول:

تكلم.. عجل وإلا..

وعندئذ ومض الضوء فى ذهن راوول وقال:

– آه.. كيف لم أفطن إلى هذا؟

وانحنى فوق المنحدر وراح يمشى على أربع تقريباً، وبدأ يهبط فى بطء؟

– هل حزمت أمرك؟ ألا تريد أن تتكلم؟

–كلا.

- هيا ياجريجوار.

صرخة حيوان خرجت من مجموعة من الصخور المنخفضة، وقال راوول:

- حسن.... ها نحن قد وصلنا.

وأبعد بعض الأشواك بقدمه وجلس القرفصاء.. كانت هناك فتحة أضاءها بمصباحه الكهربى.. طبعاً. آه.. هذا هو الأمر إذن بئر التهوية.. لاريب أن هناك محجراً.. صاح الصوت متوسلاً:

- النجدة.

- يمكنك أن تصرخ كما تشاء.. كلا لا تريد أن تتكلم؟.. استمر ياجريجوار.

التصق راوول بالصخور ولم يعد يفقد كلمة واحدة من الاستجواب الرهيب الذى يدور تحته. وراحت الأحداث تتكون فى ذهنه فى منطق ودقة أثارا جزعه وملآه رعبا: أهل البيت مخدرون، والعدو الخفى ينجز خطة موضوعة بكل عناية فاختطف الخادم.. وبلغ القارب مدخل سرداب مهجور.. الآن العذاب، وغدا جثة تتعفن وتتكفل بها الجرذان.

وتأوه الصوت من جديد:

– كفى.. كفى.. سأتكلم.

أدخل راوول رأسه فى الفتحة والتصق بالتل، وراح يتنفس هواء يشوبه العفن، ولكن كانت هناك رائحة أخرى لم يلبث أن عرفها وهو يقشعر.... رائحة لحم يحترق.

– عجل وإلا انتهى أمرك.

– جرعة من الماء.

– إننى أحذرك.. سوف نبدأ من جديد.. هيا ياجريجوار.

ومن جديد الصرخة المدوية المريعة، وراح راوول يسب ويلعن وانغرزت أظافره فى كفيه. وساد صمت، ثم عاد الصوت الخشن يقول:

– أظن أنه أغمى عليه.. جريجوار.. الماء.

ارتد راوول إلى الخلف. لم يفت الأوان بعد، فبقليل من الحظ واستنادا إلى عنصر المفاجأة.. رجل ضد ثلاثة.. كان ذلك يكاد يكون أمراً يسيرا.. وراح يثب فوق المنحدر، ولم يكن دافعه إلى ذلك انتزاع السجين من عذابه فحسب ولكنه أدرك أن قصر يونرفيل لاشك يضم سرا غير تحفه ونفائسه... سراً عظيماً.... وقد صمم أن يعرف هذا السر.. وراح يجرى الآن فوق أرض صخرية تشرف على نهر السين ويكرر فى صوت خاقت كما لو أن لإرادته ما يكفى من القوة لكى يشق

طريقه فى جوف الأرض حتى يصل إلى مخ المختصر:

– قاوم ياصديقى.. قاوم خمس دقائق فحسب وسوف أنقذك.. تجلد فأنا لوبين.. قادم إليك.

كانت الأشجار الثلاثة الآن تحت قدميه تقريباً فتعلق بحافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وتحسس بأصابعه حافة الجرف وأحس بساقيه تلمسان أعلى الأغصان وفتح أصابعه وهوى خلال الأوراق ثم ارتفع على قدميه وتعلق لحظة وجيزة أبصر فيها جرفا ضيقاً موصلا وسلسلة القارب، وعاد فهوى من جديد فى رفق فوق أرض لينة.. ولم يشعر بأية دهشة وهو يرى فتحة سرداب يمتد داخل الصخور.. وعلى ضوء مصباحه رأى قضبانا صدئة لعربة صغيرة من تلك العربات التى تستخدم فى المناجم ولاريب أن الزوارق كانت ترسو فى هذه الناحية فيها سيق وتوسق حمولتها مباشرة.. ولم يكن أمامه الآن إلا أن يستكشف المكان.

كانت أول مبادئ الحرص تنصحه بألا يستخدم مصباحه الكهربى فراح يتعثر فوق القضبان، تلح عليه نفس الفكرة وتؤرقه (عساه ألا يتكلم). وتوقف لكى يصغى.. لاشىء غير صمت بغيض لايطاق.. وخطر له عندئذ أن الأصوات فى جوف الأرض تنتشر بطريقة غريبة...

ولعله لاينال بعيداً عن الأشقياء الثلاثة... مهما يكن فقد قضى الأمر وسيصل بعد فوات الأوان.. وتعثر فى عمود معدنى وأوشك أن يقع فأضاء مصباحه لمجرد لحظة خافتة يا للكارثة... يا للكارثة! كان أمامه طريق متفرع، وكان من المستحيل أن يعرف... وانعطف إلى اليمين، وعلى الفور، وفى جوف الليل ظهر ضوء صغير أحمر أخذ يكبر..

وتقدم راوول فى بطء أكثر وضمن تفريعة ثانية... ولم يلبث أن انضم للطريق الأيسر بعد دورة إلى الطريق الذى سبق أن اتخذه... واخترقت القضبان قاعة كبيرة دائرية تشع منها انعكاسات صادرة من كومة من الحجر تنير أرجاءها فى غموض... اختفى الجلادون، ولاريب أنهم غادروا السرداب عبر الطريق الأيسر، ومروا براوول على غير علم منهم، ولكنهم لم يحملوا ضحيتهم معهم.. كان الرجل راقدا بجوار النار وقدماه العاريتان نحو الجمر.. وسلط راوول نور مصباحه عليه كان رجلاً مسنا، أبيض اللحية، خشناً، قوى الجسم، له وجه نبيل وكان لا يزال يتقلص من جرا ء التعذيب.. ورفعه راوول وأبعده عن النار.

– أنت لم تمت يا صاحبى؟ لن تموت الآن بعد أن لقيت من أجلك كل هذه المشقة.. سوف تعود إلى الحياة برفق وتتحدث معى.

وألقى وهو يتكلم بأشعة مصباحه على قدمى الرجل المسكين، وارتسمت على وجهه تكشيرة فلمس بأصبعه اللحم المتورم وقال:

– آه، ليس الأمر بالسوء كما ظننت.

وتلوى الرجل وسرت قشعريرة فى بدنه وتأوه قائلاً:

– الرحمة.. إننى قلت كل شىء.

وراح ينطق بكلمات غير مفهومة، واضطر راوول أن يجثو بجواره وأن يدلى أذنه من الشفتين الشاحبتين وقال:

– تكلم ماذا تقول؟

القديس جان؟

ماذا فعل هذا القديس؟

إيه القديس جان يخلف يعقوب؟

حسن.. هذا واضح تماما... وبعد؟

دراتنيان؟

نعم، إننى أسمع جيداً.. دارتنيان.. هدئى من روعك يا جدى.. دارتنيان يفوز بالجد والثروة بحد السيف.. أهذا ما تريد أن تقول؟ انتظر... سأكرر... القديس جان يخلف يعقوب... دارتنيان

متأكد أنه ليس هناك أى شىء آخر؟ شىء آخر يلقى قليلاً من الضوء رغم كل شيء.

وأمسك الشيخ من كتفيه وعيناه تلمعان بالانفعال وهزه فى رفق وقال:

– جهد آخر ياجدى .... أفرغ ما فى جعبتك فتنجو من الموت ورفع الشيخ نفسه فى جهد أخير وتوترت شفتاه وصاح راوول؟ وماذا؟ الدم... هل قلت الدم؟

خفض الشيخ حاجبيه وعاد فهوى على الأرض، وتشبث راوول به وقد امتقع وجهه لفرط ما يشعر به من غضب مكبوت، وقال:

– تكلم.. عجل وتكلم.. ولتمت بعد ذلـك.. دم من؟ هيا ياصاحبى، تشبث بالحياة.. ما هذا الدم الذى تتكلم عنه؟

ولكن الشيخ كف عن الحركة. لن يبوح بالكلمة.. تلك الكلمة التي لاريب أنها مفتاح كل الباقى.. فقد رشده ووجهه الناصع البياض كالشمع أصبح بشعا وبغيضا.... وزمجر راوول:

– يا للمسكين..... ومع ذلك فقد بدأ يتكلم.. لو أنه لم يفقد الرشد لاعترف بكل شىء فى ثلاث ثوان.

وجفف جبين الرجل المجهول وكان يتفصد بالعرق.

ووقف بجوار الحجر الذى يتصاعد منه الدخان فى آخر السرداب المظلم على أتم راحته كما لو كان فى النادى الذى يختلف إليه عادة وراح يفحص الموقف بتلك الجرأة المجيبة وبتلك الدقة الدهشة التى تتيح له السيطرة على أشد المواقف صعوبة.. وابتسم فجأة كالطفل وقال:

- حسنا ياجدى.. سوف تنصرف الآن.... سأحملك معى إلى عيادتى... وأعدك أنك سوف تعدو كالأرنب قبل خمسة عشر يوما.

ورفع الشيخ فوق ظهره وتمتم يقول: أنت ثقيل ياجدى.... ثقيل جداً.

وعاد من حيث أتى وهو يرزح تحت الحمل الثقيل الذى يحمله.. لحظة عند مدخل السرداب ليسترد أنفاسه.... لم يكن القارب في موضعه تحت الأشجار ولاريب أن الرجال الثلاثة حسبوا أن ضحيتهم ماتت... وزمجر راوول وجمع قواه وعاد وحمل حمله من جديد.

- مازال حياً.... إنه مبنى بالجير والرمل.. ياله من جبل.

وأخذ يمشى من جديد، وبدأ النهار يطلع، ولكن الريف كان لا يزال مقفرا ولاريب أن برونو فوق البرج يفحص بمنظاره كل ثنايا الطريق، وسوف يسارع إلى النجدة بمجرد أن يراهما.. وبدأت ساقا راوول تترنحان لفرط التعب وفكر:

– إننى أخطئ أن أرهق نفسى هكذا، فإننى لم أعد فى العشرين كما كنت.

وكانت المسافة بين المحجر والسيارة أكثر من كيلو مترين، وقطع راوول ساعة فى عبورها، ولحسن الحظ كان برنو.. برنو الأمين المخلص هناك.. وترك راوول يتهاوى فوق العشب فى حين بادره برنو يقول:

– لقد استبد بى القلق ورحت أتساءل..

– حسناً.. اهتم به.. هل تعرفه؟

قال برونو مضطرباً:

– إنه الشيخ الذى كان فى القصر.. أعنى الحارس.

– قل لى أظنك درست الطب قبل أن يسوء بك الحال؟

– نعم، ولكننى فشلت،. بل إن فشلى هذا كان السبب في....

– أعرف.. احمل الشيخ إلى العربة.

– هل ستمضى به إلى المستشفى؟

– ماذا تقول؟ إننى سأحتفظ به إن الرجل ثمين جداً.... هل رأيت قدمه.... أتظن أنهم يختطفون رجلاً ويعذبونه هكذا لأسباب تافهة.

– وماذا ستفعل به؟

– أنا؟ لاشيء... أنت الذى ستفعل منه شيئاً.. ستعنى به وتشفيه فى أسرع وقت... وسوف نرى بعد ذلك... مفهوم يادكتور؟

– ولكن، أين تريد أن...

– لا تشغل بالك بهذا، فإن لى علاقاتى في الحى... ثم إنك تثير ضجرى بأسئلتك هذه... هل فهمت؟

إلى الأمام إذن.

– ونهض، نشيطا، مستجماً، يزخر بالقوة والحياة وبوثبة واحدة أخذ مكانه أمام عجلة القيادة وهو يقول:

– اجلس في المؤخرة واحرص على صاحبنا جيدا فإننى على عجل من أمرى.

وبعد لحظات كانا يخترقان هونفلير، وكانت لاتزال هاجعة.. وكان راوول يدندن ويدق بأصابعه على عجلة القيادة منغما لحنا.. القديس جان... يعقوب.... دارتنيان.. القديس جان.

وانعطفت السيارة فى طريق تروفيل وهى تنتزع الحصى لفرط سرعتها.... القديس جان.. يعقوب.... القديس جان الذى يخلف يعقوب.. ودارتنيان الذى يفوز.. وفكر (لعمرى إن هذا العجوز إن هو إلا نوسترادا موسى.. من إذن ذلك المغفل الذى قال إن الحياة

لاتساوى أن يعيشها المرء.. ولكن الدم.. الدم يا إلهى! دم من؟ (وكانت السياج التى تحف بجانبى الطريق تبدو كأنها تبتعد فجأة أثناء مرور ا لسيارة بينها ثم تعود فتضيق من جديد (سوف يتكلم... لابد أن يتكلم.. سيخبرنى أنا.. وعندما أعرف السر..)

وتوقف راوول أمام بيت صغير فى قلب الريف، وكان هناك سور أبيض أمام حديقة جميلة... كانت نوافذ البيت مغلقة، فهبط ودفع باب السور وطرق الباب.. مرة. ثم مرتين.. وبدأ الانفعال يتملكه.

- حسناً... ألا تفتحين؟

وانفتحت نافذة فى الطابق الأول وارتفع صوت نسائى مهزوز يقول:

- من هناك؟

- أنا البابا.

-ياإلهى.. أهذا أتت؟ أنت ياصغيرى!

وماهى إلا لحظة حتى فتحت المرأة الباب.... وقال راوول:

- هذا أنا يافيكتوار.... أتيت لأحييك وأنا فى طريقى.

نظرات فيكتورا إليه وجلة.. وأشار راوول إلى برونو فتقدم هذا

الأخير وهو يحمل الشيخ الذى لايزال سادرا فى إغمائه وقال راوول:

– أتيتك بضيف.

– احتجت فيكتوار قائلة:

– آه،كـلا..كـلا.... لا أريـد... كفانى ما لقيت من ألاعيبك ودسائسك.. انتهى كل ذلك.... هل تسمع؟

لقد تقدم العمر الآن.

– تقدم بك العمر؟ أنت؟ هراء.. إن من يراك لايعطيك أكثر من سبعين سنة... لن ترفضى إسداء خدمة صغيرة لى يا عزيزتي فيكتوار... للمرة الأخيرة.

ودفع برنو إلى الردهة ثم تقدمه إلى غرفة صغيرة تؤدى إلى الحقول من الناحية الأخرى للبيت.

– قضبان بالنوافذ وقفل بالباب.. حسن.. لا يدرى المرء ما قد يحدث... ضعه فوق الفراش.. ستبقى هنا يابرنو وستعنى به.... وستمضى فيكتوار إلى البلدة لشراء الأدوية.. أنتما مسئولان عنه أمامى، ولا كلمة واحدة لأى كائن كان وإلا انتزعت لسانكما.. هناك غرفة أخرى فى الطابق الأول، إذا كانت ذاكرتى لا تخوننى... ستمضى فيكتوار بك إليها، فأنت بحاجة إلى النوم.

قالت فيكتوار:

– ولكنك أنت مرهق أيضاً ياصغيرى.. إن سحنتك تثير الخوف..... يجب أن تنام أنت أيضاً.

أمسك راوول مقعدا وجلس بجوار الباب وقال:

– أنام... هل تمزحين؟ ألاتفهمين ياعزيزتى؟ سر يونرفيل!

صفحة من التاريخ

رغم علاقتى الطيبة الودية مع أرسين لوبين والثقة الكبيرة التي أولانـي بها في شتى المناسبات.

فلا تزال في حياته بعض الأسرار التي لم أفلح بعد في أن أجلو غوامضها، وعلى الخصوص قدرته العجيبة ليس في التنكر فحسب وإنما في تقمص أية شخصية إلى حد أنه لا يمكن أن يخطر لأي أحد أنه هو لوبين نفسه.. فهل تراه عملا، كما يزعم، مع فريجولى أم أنه تلقى دروسه، كما يؤكد، في الكونسرفاتوار، وهل صحيح أن ميليس لقنه أسرار السحرة والحواة؟

عندما ألقى على مغامرنا القومي أسئلة محددة في هذا الصدد يكتفي بأن يبتسم أو بأن يرد كما فعل ذات يوم مع القاضي فورميرى إذ قال:

إننى أشخاص كثيرون يا سيدي القاضي ولست على علم بسيرة

أشخاصى العديدين.

ولكن الشيء المؤكد أن أرنستين، خادمة الأستاذ فرينيزو، موثق العقود بمدينة هونفلير، أدخلت في ذلك الصباح في غرفة الصالون رجلاً قصير القامة يرتدى ثيابا بالية، حلو الشمائل، طلب منها أن تنبئ سيدها بأن الكونت هونوريه دى بريساك يريد أن يقابله، وقرصها في خدها في رفق بحيث كان من المستحيل أن تغضب..

وأحس الأستاذ فرينيزو بدوره من نحو الكونت دى بريساك، حالما رآه، بميل كبير، ميل تحول إلى ود أكبر عندما عرف أن زائره يشاركه حبه الشديد للتاريخ.

بدأ الكونت يقول بعد أن أخذ مجلسه في أفضل مقاعد المكتب:

– علمت من ابن عم لي أن قصر يونرفيل معروض للبيع ولا أخفي عليك أنه يسعدني أن أشتريه.

وضحك ضحكة قصيرة ظريفة كما لو أنه أول من يسخر من نزواته واستطرد:

– وليس ذلك لبنائه المدهش أو لمعرضه الرائع فحسب وإنما، وأقول على الخصوص، لأسباب عاطفية بحتة..

آه، نعم.. إننى رجل محافظ وأعرف أن كثيراً من الذكريات،

وأغلبها ذكريات مجيدة، ترتبط باسم يونرفيل.

أسرع موثق العقود يقول وقد أسعده أن يجد مستمعا يستطيع أمامه أن يرخى العنان لهوسه البرىء دون أن يتعرض لأن يقاطعه ويقول في فتور «وبهذه المناسبة أرجوك أن..».

– وهي ذكريات بعضها غير بعيد جدا عنا.. هل تعلم أن ملكنا المسكين لويس فيليب أقام بضعة أيام في القصر عند هربه إلى إنجلترا في ذلك الشتاء المحزن من عام ١٨٤٨م؟

قال الكونت: أظن أنني قرأت في الواقع شيئاً في هذا الصدد، ولكن هناك قصصا متناقضة تدور حول هذا الحادث المؤسف.. والحق يا أستاذ أنها تؤجج رغبتى في الحصول..

– ولكن معلوماتك خاطئة، فإن قصر يونرفيل ليس معروضا للبيع.

– حقاً؟ هذا خبر سيئ في الواقع.. ويؤسفني سماعه بالتأكيد.

– وأنا حزين جدا من أجلك، فأنا الذي قمت بإجراءات البيع منذ ثلاث سنوات وقد كان عميلى مهندسا يدعى جاك فيرانج.. رجل شهم وذكي جداً ونشيط جداً.. بل أقول إنه كان جم النشاط.. ألم يعقد العزم على إدخال تجديدات في أرجاء القصر؟

– نعم. إن رأيي كرأيك تماماً في هذا الصدد يا سيدي الكونت، فإن الجيل الجديد لا يهتم في بعض الحالات بالحفاظ على الآثار ولا يحجم عن تدميرها.. وقد بدا جاك فيرانج بإدخال الكهرباء.. وهذا أمر طبيعي فيجب أن يساير الإنسان وقته.. ولكنه أراد هدم الجناح الأيمن وتوسيع فناء الشرف وإدخال الماء كما لو أن البئر لم يكن فيها الكفاية.. وأراد أيضاً استبدال الإسطبلات بجراج.. وفي هذه النقطة بالذات لم أكن لأوافقه.

صاح هونوريه دى بريساك في عنف:

– آه، كلا، ولكن ألا يمكن أن أقوم بزيارة هذا السيد فيرانج؟

– كلا للأسف.. فقد مات، وبطريقة مأساوية.

وضغط الأستاذ فرينيزو على جرس فأقبلت أرنستين، وقال المحامي: هل لك أن تشرفني وتتذوق شراب التوت الذي أعده بنفسي يا سيدي الكونت؟

إنه شراب ممتاز.. وسوف ترى ذلك بنفسك.. أحضرى لنا قدحين يا أرنستين، إذا سمحت.

وأدنى مقعده من مقعد زائره واستطرد:

– لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما بعد شهرين تقريباً من إقامتهما

في القصر في حادث سخيف.. كانا يقومان بنزهة بحرية على مقربة من هنا وغرق الزورق.. إن القصر يجلب النحس فإن صاحبيه السابقين ماتا هما الآخران بطريقة محزنة.. لقى الأول حتفه في حادث صيد.. أطلق رجل مجهول لم يعرفه أحد حتى اليوم رصاصة أصابت منه مقتلا ووقع الثاني من فوق الصخور.. وكل هذا يثير الحزن.

– لنعد إلى آل فيرنج.

– حسناً، إنهما تركا فتاة قاصرة تدعى لوسيل.

قال الكونت: وإذن؟

– انتظر.. كان لجاك فيرانج أخوان، هوبير، الأخ الأكبر وقد أصبح القيم على اليتيمة، وهو الذي يسكن القصر الآن.

ورفع المحامي قدحه وراحا يشربان في بطء وهما يتذوقان الشراب وعاد الكونت يقول:

هذا أمر مؤسف، ولكنني مضطر الآن إلى العدول عن مشروعي.. لك أن تصدقني على كل حال إنني لست آسفاً على هذا الإجراء الذي قمت به لأنني أظن أنك لن ترفض أن تطلعني طبعاً على الظروف التي لجأ فيها الملك إلى..

قال الأستاذ فرينيزو:

– طبعاً، خصوصاً وأنها نقطة تاريخية أهتم بها كثيراً، ولن أعيد إلى ذاكرتك يا سيدي الكونت أسباب ثورة سنة ١٨٤٨م.

تنهد هونوريه دى بريساك وقال:

لا داعي لذلك طبعاً.

وأردف يقول في تفكير:

– لقد حدثني المرحوم أبى كثيراً عن الثورة وعن تنازل الملك عن الحكم، وعن هربه هو وزوجته إلى تريانون ثم إلى درو...

– وهل قال لك المرحوم أبوك أن الملك نزع شعره المستعار وارتدى سترة عادية من الصوف وأخفى عينيه خلف نظارة سميكة حتى لا يعرفه أحد، وأنه على الرغم من تنكره هذا عرفه أحد الحراس الوطنيين في مدينة أفرو وكاد أن يبلغ عنه؟

قال الكونت ولم يكن يفكر في إخفاء فضوله الشديد:

– هذه نقاط لم أكن أعرفها.

قال موثق العقود في ارتياح:

– وأنت لست وحدك.. بعد ليلة طويلة من القلق وصل الملك فيليب إلى قصر يونرفيل حيث انضمت الملكة إليه بعد بضع ساعات..

وكان المكان مثاليا للمراقبة، فمن ناحية، الريف حيث يمكن للجيش أن يظهر في أية لحظة، ومن الناحية الأخرى، البحر، وهو الوسيلة الوحيدة الباقية للنجاة.. والكونت يونرفيل، وهو الشخص الوحيد الباقي من آل يونرفيل، كان رجلاً متقدما في العمر ولكن رئيس خدمه ويدعى إيفاريست كان شاباً، وكان شديد الإخلاص مثله للملكية.. وكانت الحكومة المؤقتة قد أصدرت أوامر مشددة لمراقبة الساحل.. وكان إيفاريست هو الذي فكر في أن يكترى سفينة صغيرة في تورفيل، وقد تقاضى صاحب السفينة، ويدعى هولو، ثلاثة آلاف فرنك لكي ينقل الملك إلى الساحل الإنجليزى.. وكان إيفاريست هو أيضاً الذي مضى بالملك في إحدى العربات إلى تروفيل.

تمتم الكونت، وكان قد انحنى إلى الأمام رغما عنه وراح يلتهم موثق العقود بعينيه:

– هذا أمر مثير.

استطرد الأستاذ فرينيزو:

– والبقية أكثر إثارة، فها هو الملك في تروفيل، وكل شيء جاهز، ومع ذلك فلم يرحل، بل على العكس، عاد في ليلة ٢ مارس إلى قصر يونرفيل.. فلماذا؟ زعم البعض أن البحر كان هائجاً وزعم الآخرون

أن صاحب السفينة خشى أن يبلغ عنه أحد وفر في آخر لحظة، وهذه الأسباب تبدو لى غير مقنعة، فهناك شيء غامض لا تفسير له في تصرف الملك العجوز المطارد الذي لم يكن هناك من هم يشغله غير نجاته هو شخصياً.. وأنت تعرف، لأن هذا الأمر أصبح معروفاً من الجميع، أن لويس فيليب أبحر أخيراً في تلك الليلة، وأعنى بها ليلة ٢ مارس إلى هونفلير على السفينة «ليكورييه».. التي وضعها قنصل إنجلترا في فرنسا تحت تصرفه في ميناء الهافر..

ومع ذلك فقد كان البحر هائجاً، ومن ناحية أخرى، كان المدعى العام في بون أوريمير وجنوده يراقبون الموانى والطرق مراقبة دقيقة، فلماذا أصر الملك، وكان موجوداً بطريقة ما في تروفيل، على العودة فجأة متحديا بهذه الصورة خطرا جسيما لم يكن هناك أي مبرر له.. من رأيى أن قرار الهروب ليس له غير تفسير واحد وهي ضرورة ماسة ومفاجئة لكي يتواجد في القصر، أما لكى يأخذون شيئاً كان قد أودعه في عهدة أصدقائه المخلصين وما على العكس لأنه أراد أن يكلفهم بمهمة سرية تردد في أن يعهد بها إليهم حتى آخر لحظة.

وأردف الأستاذ فرينيزو ويقول:

– ولكن ليس في مقدوري أنا أن أجلو هذا السر التاريخي الصغير.

قال الكونت.

– ولكنك توصلت إلى نتائج رائعة.. اسمح لي أن أهنئك على هذا التبحر.

احتج المحامي في تواضع: أوه.. لا داعي للمبالغة في مقدرتي وقدراتي فإنني وجدت أغلب هذه المعلومات في المذكرات التي تركها الكونت يونرفيل الشهم.. إن الرجل المسكين لم يعش كثيراً بعد مليكه فمات في سنة ١٨٥١م، ويمكنك أن ترى قبره في مقبرة يونرفيل بجوار قبور أجداده.

وبدا كأن الكونت بريساك قد صغر فجأة، وكان جالساً في مقعده مستقيماً جداً وينقر بأصابعه في عصبية على مستوى مقعده وهو فريسة انفعال غريب.. وتمتم يقول:

– رجل عاصر الثورة والإمبراطورية والملكية.. لا ريب أن هذه المذكرات ذات فائدة كبرى.

– كلا.. إذا أردت الحقيقة.. فإن أسلوبها قبل كل شيء ممل جداً، وهي عبارة عن كراسات لا تقل عن ستمائة صفحة، مكتوبة بخط دقيق يتعذر قراءته في أغلب الأحيان، ولكي تفرغ من قراءتها فلابد لك من صبر لا أملك أنا منه شيئاً.. لابد أن يكون لديك متسع من الوقت

لذلك، فإنها تضم أشياء لا يمكن هضمها وتفاصيل تافهة.. ثم إن كل ما فيها عرضة للطعن، فإن الكونت كان رجلاً متعصبا، ومن ناحية أخرى فإن الأحداث التي ذكرتها لك لا ريب أخلت بعقله إلى حد ما لأن الجزء الأخير من المذكرات يضم فقرات مبهمة تماماً.

سأله الكونت في اهتمام:

- هل يمكن أن تضرب لي مثلاً؟

- لا أستطيع أن أتذكر.. ولكن لا شيء يمنعك من أن تطالع هذه المذكرات بنفسك، لأن جاك فيرانج أهداها إلى شركة نورماندیا للتاريخ والآثار.

- وهل تظن أنه قد يوجد في القصر أوراق أخرى أو مستندات أخرى تتكلم عن الحقبة التي تكلمنا عنها الآن.

- كلا.. لا أظن ذلك.. ولكن ليكن معلوما أننى لم أفحص كل الكتب الموجودة في المكتبة.. لعلها تضم خمسة عشر أو عشرين ألف كتاب ولم تدرج في فهرس أبداً.. كان جاك فيرانج ينوى أن يبوبها وأن يعد لها فهرسا وكل ما أستطيع أن أؤكده لك هو أن المذكرات مازالت، رغم التحفظات التي تقال عنها، المصدر الوحيد الموثوق به فيما يتعلق بأحداث فبراير ومارس سنة ١٨٤٨م.

وكان الكونت قد استعاد هيئته التافهة السابقة فنهض وهو يقول:

– سوف أتحسر على قصر يونرافيل ما حييت.. ولكنني سأحتفظ بأحسن ذكرى عن زيارتى لهونفلير.

وشيعه المحامى حتى باب الشارع.. وعلى العتبة تبادلا بعض المجاملات مرة أخرى ثم انصرف الكونت وهو محنى الظهر قليلاً ويكاد يجر قدميه، ولكنه ما أن انعطف إلى الشارع الجنبي حتى نصب قامته وأسرع في خطاه.. وكان في انتظاره سيارة بجوار الطوار فاستقلها وهو يتنهد قائلاً:

– عجوز أحمق.. ولكن شرابه لذيذ وممتاز.. لو أستطيع على الأقل أن أعرف دم من.

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب في ذلك اليوم عندما هبط راوول دابنياك من سيارته أمام مسكنه ببوليفار بيرير، وكان قد تخلص أثناء الطريق من تنكره في هيئة الكونت دى بريساك واستعاد هيئته كشاب رياضى أنيق.. لم يكن قد كف عن التفكير في اعترافات الأستاذ فرينيزو، وأحس بقلق شديد.. لقد كانت هذه الزيارة لمكتب موثق العقود قمة في العبقرية، وكان ملهما إذ امتدح شغف الرجل العجوز بالتاريخ.

لم يكن هناك طبعا ما يثبت أن هناك علاقة بين حادث الأمس الخفى وبين الأحداث التاريخية التي كان القصر مسرحا لها قبل ذلك بستة وستين عاماً، ولم يكن في الكلمات الغامضة التي نطق بها الشيخ العجوز الذي عذبوه شيئاً يبدو أنه يمت إلى إقامة الملك لويس فيليب الوجيزة في قصر يونرفيل، ومع ذلك فإن غريزة لوبين العجيبة أنذرته بأنه يجب أن يوجه أبحاثه إلى هذه الناحية.. ثم إنه لم يكن يملك في تلك اللحظة أية تفاصيل أخرى من شأنها أن توجهه إلى طريق آخر، وكان لابد له لكي يبدأ أبحاثه من الحصول بأية طريقة على المذكرات المشهورة التي قرأها الموثق بتلك العجالة، وراح يغلى من اللهفة..

ولكنه كان يعلم جيداً أنه لا يجب أن يتعجل أبداً في سبيل الحصول على ما يريد، ولهذا جلس في هدوء أمام مكتبه وأخذ كل وقته لكي يشعل سيجارا ثم ضغط على زر مستتر في درج بالمكتب انفتح على أثره درج صغير خفى أخرج منه أضبارة ضخمة تحتوى على نماذج لخطوط جميع المشهورين.. كان في هذه الآضبارة آلاف منها، ابتداء من خط ليلى أمور، الممثلة المشهورة إلى خط فالنجلاى، الرئيس السابق للوزارة وعضو مجلس النواب، مرورا بخطوط المفتش العام جانيمار وبرجسون والنائب دوبريك وقداسة البابا بول العاشر، وطالما امتدح الناس

طريقة لوبين العجيبة في التصرف، غير أن أحسن انتصاراته وأكثرها غرابة إنما يدين بها إلى طريقته التي لا تخيب.. كان لوبين يعرف كيف يعمل قبل أي شيء آخر.

أخرج بطاقة باسم جابرييل تبارو، عضو المجمع، وفحصها لحظة في تركيز عميق.. وبنظرة واحدة عرف أدق الخصائص المميزة لخط الرجل.. الحروف المتباعدة بعضها عن بعض والأخرى المتشابكة، ثم أخذ ورقة بيضاء وراح يتمرن بضع دقائق في تقليد الخط الرفيع الذي يدل على عصبية صاحبه، ثم فتح دليل التليفون وبحث عن عنوان شركة نورماندیا للتاريخ والآثار ثم بدأ يكتب مرة واحدة وفي سهولة تثير جزع أي خبير في الخطوط.

إلى السيد جاستون سيروس.

سكرتير شركة نورماندیا...

زميلي العزيز.. أجيز لنفسي بأن أوصيك خيرا بصديقي راوول دابنياك، وهو شاب جغرافى ينتظره مستقبل زاهر.. وقد تخصص في تاريخ موطنك الصغير ويعد بحثا عن الفن النورماندى.. وأنا على يقين من إنك تهتم اهتماماً كبيراً بهذا الفن وأرجو أن تسهل له أبحاثه وأن تتقبل أيها الزميل العزيز.

وفرغ راوول من خطابه وهو يبتسم ووقعه.. سوف يحصل على المذكرات إذن، وسوف يفحصها على مهل ويتحقق منها صفحة صفحة، ولعله يخرج منها بلا طائل ولكن لعله يكتشف شيئاً.. وبالذات ما غاب عن بحث الأستاذ فرينيزو.

وكانت شركة نورماندیا للتاريخ والآثار تقع في مبنى قديم وهادئ بشارع بونابرت.. وقال راوول يخاطب البواب:

– مستر سيرول؟

أجابه البواب دون أن يرفع عينيه: الطابق الأول.

وقال راوول يحدث نفسه وهو يصعد درجات السلم:

– أرجو ألا يلقى علىّ أسئلة كثيرة عن الفن النورماندى وإلا فإن صديقى تابارو المشهور يخاطر بأن يفقده اعتباره.

كان بالباب بطاقة زيارة عادية مثبتة بأربع دبابيس.. وضغط راوول على الجرس.. ما شكل هذا السيرول؟

تخيله راوول رجلاً قصيراً شحيما يغطى رأسه بقلنسوة سوداء ويضع قطناً في أذنيه.. ومرت فترة طويلة ولم يظهر سكرتير شركة نورماندیا.. ولكن هل سمع أولا؟

وضغط راوول الجرس مرة أخرى بدون نتيجة.. فقال:

– هذا أمر مؤسف.. خطاب تقديم محرر بهذا الأسلوب الجميل.. لا بأس.. سأخدم نفسي بنفسي، ومهما يكن فقد اعتدت على ذلك.

وما كاد يدفع الباب حتى انفتح، ودخل ورأى غرفة المكتب على يمين الردهة، وتقدم بضع خطوات وألفى نفسه في غرفة واسعة بجدرانها رفوف حتى السقف مملوءة بالكتب.. وفي وسط الغرفة تمتد منضدة كبيرة مكسوة بسجادة طويلة تتدلى حتى الأرض، وفوقها صناديق بطاقات وسجلات.. وقال:

– المكان متواضع.. من المؤكد أن الثقافة لا تغنى أصحابها.

وصعد فوق سلم موضوع بالذات أمام القسم الذي يحمل حرف الياء.. وما كاد يلقى نظرة حتى رأى الفراغ.. كانت مذكرات الكونت يونرفيل غير موجودة.

لم يتمالك راوول من أن يكتم صيحة غضب.. ماذا؟

هل جرؤ أحد؟

ومع ذلك فإن موثق العقود أكد أن المذكرات لا تضم شيئاً ذا فائدة تذكر.. لو أن أمين المكتبة لم يقع اختياره على هذه اللحظة بالذات لكي يتغيب.. وهبط راوول من السلم وأجفل بشدة، ثم اقترب من المنضدة

في بطء ورفع طرف السجادة.. ظهرت أمامه قدمان ينتعلان خفا.. لم يذهب أمين المكتبة بعيداً.

لم يضيع راوول لحظة واحدة، فإن بعضهم قد يأتي في أية لحظة فجثا وأزاح السجادة.. كان الرجل تحت المنضدة، تماماً كما تخيله.. وكل ما هناك أن قلنسوته وقعت بجواره، وكان قميصه ملوثاً بالدم.. كانت الرصاصة قد أحدثت ثقبا رفيعاً عند مستوى القلب.. وكانت الجثة باردة.

أعاد راوول السجادة.. لم يكن هناك أي شك في أن القاتل قتل سيرول لكي يسرق المذكرات.. كان ذلك واضحاً وضوح الشمس وكان سجل الاستعارات مفتوحاً فوق المنضدة.. وجرى راوول بعينيه على عامود الكتب التي خرجت.

مذكرات الكونت يونرفيل: ٦ يونية، البارون جالسيران.

وألقى نظرة على عامود الكتب المعادة:

مذكرات الكونت يونرفيل ١٤ يونية، البارون جالسيران.

كان يجب أن تكون المذكرات موجودة إذن.

كان راوول يعرف الخطر الشديد الذي يتعرض له ببقائه في المكان، ومع ذلك فقد كان عاجزاً عن الحركة.. أثارت هذه الجريمة حيرته،

وأحس في غموض بأنه يواجه خصماً قوياً ضارياً شديد العزم.. ومر بيده على جبينه وتمتم:

- هذا عجيب. ولكن لعلها مجرد مصادفة.. وقد أكون واهماً..

وانحنى فوق السجل:

ـــ ١٤ يونية، البارون جالسيران.

وجرى أصبعه على العامود الآخر:

ـــ ٦ يونية، البارون جالسيران.

وفجأة أطلق صيحة دهشة.. فإن الحروف لم تكن متشابهة على الإطلاق في حين أن المفروض أن التسجيلين قد دونتهما يد واحدة، وهي يد أمين المكتبة.. لم يكن هناك أي شك في أنه هو الذي حرر التسجيل الأول ولكن التسجيل الثاني، وهو تسجيل ١٤ يونية كان تقليداً، فقد كانت الحروف في المرة الثانية تدل على أن كاتبها قد كتبها وهو مضطرب، فجاء التقليد واضحاً كل الوضوح.

وعندئذ دار المشهد الذي حدث أمام ذهن راوول بدقة ووضوح كاملين: الرجل، يطلق الرصاص على السكرتير ثم يخفى جثته على عجل ويدون في السجل ما يثبت أن المذكرات قد أعيدت حتى يخفى السبب الحقيقي لارتكاب الجريمة.

وهتف يقول:

- وأوشكت اللعبة أن تجوز على.. آه.. ذلك أن صاحبنا عرف كيف يدبر أموره، ولكن من عادتى أنا الآخر أن أقلد الخطوط، فهل فهمت يا بارون؟

أنا أيضاً أفهم ما يدور حولى.. تريد إذن الاحتفاظ بالمذكرات وحدك.. تخشى أن تقع بين أيد غير جديرة به.. يا لك من رجل شهم.. لعلك تهوى جمع التحف أنت الآخر؟

إن السيد البارون يهتم بالتاريخ.. السيد البارون رجل مثقف.

امتزج الغضب والحقد والفرح في قلب راوول، وتقلص وجهه وضم قبضتيه.. وتنفس طويلاً ثم أخذ صندوق البطاقات الذي يحتوي على عناوين المشتركين.

ج.. جاردوا.. جافنر.. جالاييز.. آه ها هو جالسيران.. البارون جالسيران.. ١٤ مكرر شارع كامبا ساريس، باريس.

وخرج من المكتب على طرفي قدميه واجتاز الردهة وأغلق الباب خلفه في عناية.. «الأمر بيننا وحدنا الآن أيها السيد الارستقراطي».

* * *

لم يخطئ راوول، فإن بيت البارون، في آخر حديقة صغيرة، كان ينطق بالثراء.. كانت الطرقة التي تفضى إلى البسطة مكسوة بالرمل الناعم.. وعلى جانبيها أحواض من الورد، وعلى اليمين، خلف ستار من الشجيرات زجاج حديقة شتوية..

ودق راوول جرس الباب، وفتح خادم له جسم ملاكم يرتدى ثياب الخدم الرسمية ويلبس في يديه زوجا من القفازات البيضاء، وأحس بصدمة، فإن هذا الجسد الضخم وهذه الرأس المربعة سبق له أن رآها هناك، على حافة الماء، في القارب، وهكذا لم يخطئ في افتراضاته واهتدى إلى الأثر الصحيح، وقال:

– أرجو أن تعطى بطاقتى للسيد البارون.. أود أن أحادثه في أمر هام.

– هل السيد على موعد؟

– كلا.

– في هذه الحالة أخشى ألا يستطيع سيدى استقبالك، ثم إنه يتناول عشاءه الآن.

أمسك راوول الخادم من طرف جاكتته وقال:

ــ وفر كلامك أيها الوغد، وامض ببطاقتى إلى سيدك، حسبك أن تقول له إننى قادم من شارع بونابرت.

– لكن يا سيدي...

– امض.

غلب الرجل على أمره، ونطق ببضع كلمات متذمراً، ومضى نحو البيت.. وتبعه راوول في غير مبالاة، واقتطف في طريقه زهرة ثبتها في عروة جاكتته وما هي إلا دقيقة حتى عاد الخادم وقال: أرجو أن يتفضل سيدى ويتبعنى.

وتقدم أمام راوول عبر صالون فاخر الرياش إلى غرفة طعام ينبعث منها صوت اصطفاق أطباق ثم أفسح له الطريق.. وانحنى راوول انحناءة كبيرة ونظر إليه البارون وشوكته في يده.. كان رجلا في الثلاثين من عمره، ضخم الجسم، دموى الوجه، حليقاً كالممثلين، حاول أن يبدو هادئاً ولكن وجهه نم عن شيء من الانفعال وقال:

– أعترف يا سيدي أن إصرارك يثير دهشتى خصوصاً وأننى لا أدرى حقا.

وهز كتفيه وتناول صدر دجاجة وأخذ راوول مقعدا وجلس أمامه وقال:

– بل إنك تثير دهشتى يا عزيزى البارون.. ألم تخمن سبب مجيئ.. استقبلتنى إذن بحق الشيطان؟

قاطعه الآخر قائلاً:

ــ أرجوك.. فلنفرغ.. إنك تقتحم بابى وتدخل هنا كما.. كما..

وبحث عن تشبيه وعلت وجهه تكشيرة وقال محنقاً:

ــ تكلم.. ماذا تريد؟

والتقت عينياه بعينى راوول، ومرت بهما لحظة وكل منهما يحدق في الآخر، وكان البارون أول من خفض حاجبيه، وحفاظا على هدوئه عاود الأكل.. وأخذ راوول فخذ دجاجة من الطبق وهو يقول:

– هل تسمح؟ إننى لم أتناول شيئاً طوال اليوم. سأشاركك الطعام من غير تكليف.

ولأول مرة ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه البارون وشاركه اللعبة فقال:

– ألبير.. هات طبقاً للسيد.

أسرع الخادم ذو القفاز فأحضر طبقاً وملحقاته وهو يبدى احتراما كبيرا، وعاد راوول يقول:

– أخيراً.. ويزعمون أن واجبات الضيافة أصبحت معدومة.. كلا.. كلا يا ألبير.. لا أريد فجلا.. لا أتناول الفجل إطلاقاً بسبب الكبد.. قليل من النبيذ.. شكرا.. إننى أهنئك يا بارون فإن طاهيك فنان.. وهذه الدجاجة سمينة وشهية.

وكان البارون قد كف عن الأكل وراح ينظر رغما عنه وفي دهشة إلى الرجل الجالس أمامه والذي يبدو في تلك اللحظة أنه يفيض ظرفا وكياسة وعدم مبالاة:

– حسناً يا بارون.. أأكون قد تسببت في فقدان شهيتك؟ أظن أنها ليست تلك العبارة البسيطة:

ــ «شارع بونابرت». التي أزعجتك إلى هذا الحد؟

وتأمل راوول كأسه وشمه ثم قال:

– يا لهذا الأريج!.. نخب صحتك يا صديقى العزيز.. ونخب نجاح مشاريعك.

بدأ البارون يقول: هلا قلت لى؟

– طبعاً.. اطمئن.. لقد أرسلني مسيو سيرول.. هل تعرفه.. وكان البارون يقطع كسرة من الخبز في تلك اللحظة فهز رأسه وقال:

– طبعاً.. إنه سكرتيرنا الفاضل بشركة نورماندیا للتاريخ والآثار.

– هو نفسه.. حسناً.. هذا السكرتير الفاضل، مسيو سيرول قد كلفني الآن بالذات بأن أطالبك بكتاب.. أو بالحرى بمخطوط يدوى.. مذكرات الكونت يونرفيل.. ولكن يبدو أن هذا يثير دهشتك يا بارون.. ألا تصدق أن مسيو سيرول قد كلفنى بهذه المهمة؟

عقد جالسيران ذراعيه وانتفخ عنقه وتمتم يقول:

– كلا.. لا أصدق ذلك.

– لماذا؟

– لسبب وجيه، وهو أننى أعدت بنفسى هذه المذكرات لمسيو سيرول، وهي مذكرات تافهة على كل حال، ولم أحتفظ بها إلا بضعة أيام.. إن الخط ردىء لم أستطع أن أفك منه إلا القليل وأسلوبها ممجوج.. وغريب أن مسيو سيرول لا يتذكر إننى أعدتها إليه.. صحيح أن السن تقدمت به..

قال راوول موافقاً: هذا صحيح.. لقد تقدمت به السن فعلاً، هذا بخلاف ما حدث له.

– ماذا؟.. هل وقع له مكروه؟

- حادث بسيط.

- حادث؟ أرجو ألا يكون الأمر خطيراً.

- رصاصة في صدره فحسب، ولكنها أصابته في مقتل، بحيث إنه ليس هو الذي أرسلنى حقاً وإنما شبحه، وهو شبح ظريف جداً في الواقع خفيف الروح وعلامة.. ولكنه ثرثار.. ثرثار جداً.. وقد قال لي شيئاً مخيفاً.

وأخذ راوول جناح دجاجة، وكان يبدو خفيف الحركة، مرحاً، وعلى شفتيه تلك الابتسامة الساخرة المعروفة عنه. وأقصى البارون طبقه وهو يقول:

ولكننى لا أفهم يا سيدى..

- قال لى الشبح:

- عزيزى دابنياك.. لن أعرف طعم الراحة في الآخرة إلا إذا علمت أن شئون الشركة منتظمة وأن مكتبتى العزيزة كاملة لا ينقص منها شيء، ولهذا أرجو أن تمضى إلى هذا البارون الطائش جالسيران وتطالبه.

قاطعه البارون قائلاً:

– آه. إننى لا أفهم إطلاقاً ما الذي ترمى إليه، وأرجوك أن تكف عن هذرك، أكرر لك أننى أعدت تلك المذكرات ثم إن تاريخ إعادتها لابد أن يكون مسجلا في سجل الإعارات فإن سيرول لم يكن يفوته أبداً.

– إن التاريخ مسجل.

– إذن؟

– إنه أمر مؤسف حقاً لأنه ليس مدوناً بخط مسير سيرول.

– بخط من إذن؟

– بخط قاتله طبعاً.

– وهل تعرفه؟

– نعم.

– هل أنت من رجال البوليس؟

– أنا؟.. ما هذا السؤال البغيض.. هل يبدو على؟

– هي مجرد فكرة خطرت لى.. ولكن لماذا تأتي وتذكر لى كل هذا بحق الشيطان؟ يجب أن تلجأ إلى إدارة البوليس يا صديقى العزيز.

استعاد جالسيران رباطة جأشة وراح يحرج راوول في وقاحة،

وكان هذا الأخير لا يزال يبتسم وهم يلتهم الفخذ الثاني في شهية كبيرة، وقال:

– حسبت أن هذه القصة ستحظى باهتمامك.

– هي تثير اهتمامي في الواقع.. كنت أكن نحو سيرول تقديرا عميقاً، وأعترف أن موته.. وهو على الخصوص ميتة بشعة.. ولكننى أقول لك مرة أخرى إننى لا أرى لماذا اخترتنى أنا بالذات؟

– إذا كنت لا ترى ذلك حقاً فإنى أكون قد أخطأت، والتمس معذرتك يا بارون، قلت لى أن ألجأ إلى إدارة البوليس.. هذه فكرة لا بأس بها وأراهنك أن نهاية المغامرة ستثير اهتمام هؤلاء السادة، فقد كان هذا الشبح ثرثاراً.

– وما هي الغرابة في نهاية المغامرة؟

– لا.. لا.. لا داعي للإصرار.

أطبق البارون قبضتيه وقال: تكلم.

– حسناً.. تصور أن هذا الشبح.. شبح صديقنا سيرول كشف لي عن وجود بصمة إصبع.. بصمة إبهام ملوث بالدم على حافة الوراقة.. وأعترف أننى ما كنت لأكتشف هذه البصمة بمفردى فإن قاتلنا.. بعد دفع الجثة تحت المنضدة اعتمد بيده عليها بحركة آلية لكى

يقف. ولكننى أتكلم، وأتكلم.. مرة أخرى التمس معذرتك يا بارون وأشكرك.. هذه الدجاجة..

– انتظر.. إنك لم تتناول شيئاً من الحلوى.. ثم إننى يجب أن أعترف أنك أثرت فضولى.. إن كل ما تذكره لى عجيب ولم أكن أتوقعه أبداً.. بل إننى أجرؤ فأقول إنه يخرج عن المألوف.

– لك أن تجرؤ وتقول ما تريد يا بارون.. إن الوصف صحيح فهو أمر خارج عن المألوف.

– وإننى أتساءل إلى أي مدى سيخرج عن المألوف.

– إلى حد أن أذكر لك اسم القاتل، إذا أردت.

– فلتقل إننى أريد.

اضطجع راوول في مقعده إلى الخلف وانفجر ضاحكاً، وكلما ضحك كلما تقلص وجه البارون جالسيران من الغضب.. وتمتم راوول يقول:

– هذا غريب جداً.. كلا. إن أمرك مضحك كما لو أنك لا تعرف القاتل إنه أنت يا بارون.. من تريد أن يكون؟

– عظيم.. إنك تزعم إذن..

- كلا.

- آه. حسناً. إذن فأنت لا تتمادى إلى حد الزعم؟

أمسك راوول عن الضحك فجأة، وقال في صوت قاطع وهو يحنى رأسه شيئاً ما:

- ليس من عادتى أن أزعم.. إننى أؤكد وأقدم الدليل.. إن أول خبير يأتى لمقارنة نموذج من خطك مع الخط المزيف الموجود في سجل الإعارات سيقرر أن الخطين متطابقين.

- شريطة أن يقترح أحد القيام بمثل هذه المقارنة.

- سوف يقدم بعضهم هذا الاقتراح.

- ومن هذا؟

- أنا.

- وهل تظن أن هذا يكفى؟

- كلا.

- إذن؟

- سوف يقوم خبير آخر بمقارنة بصمة إبهامك الأيسر بالبصمة الدامية الموجودة على الوراقة.

- وأنت أيضاً الذي ستقترح القيام بهذه المقارنة؟

- نعم. أنا.

- بمعنى آخر إن كل شيء يتوقف عليك، وعليك أنت وحدك، إن مسيو راوول يريد تصريف أمور الدنيا وفق هواه.

- لعمرى هو ذلك تقريباً.

وكان البارون قد انحنى بدوره، وراح كل منهما ينظر إلى الآخر من فوق المائدة متحدياً.. وفي بطء دعك البارون بأصابعه مفرش المائدة في حين احتقن عنقه شيئاً فشيئاً، وأخيراً صاح يقول في صوت أجش:

- كم؟

- كم ماذا؟

- ثمنك؟

- ثمنى؟..

أي ثمن؟

آه.. ولكن من حسبتنى؟ ثمنى؟

ولكن لا شيء على الإطلاق.. فأنا.. ما أنا إلا رسول، ولو أننى كنت وحدى.. ولكن هناك شبح ذلك المتشكك مسيو سيرول، وهو

فوق تشككه متشدد جداً.. ولكنه معقول أيضاً، وهو غير حاقد عليك، ولا يطالب إلا برد المذكرات حتى يمكنه أن يرقد في سلام، فقد قال لي: فليعد هذا الوغد المذكرات فألتزم الصمت.. ومهما يكن فأنا لست مستاء أبداً في الآخرة.

- هذا ابتزاز.

- لكل امرئ أسلحته.

- إننى أوثر أسلحتى.

وضغط البارون على جرس فظهر الخادم، وبإشارة من سيده مضى ففتح درجا ودس فيه يده المغطاة بالقفاز الأبيض وأخرج منه مسدساً أوتوماتيكيا صوبه نحو راوول، وقال البارون:

- ولا حركة يا صاحبى العزيز.

وضغط الجرس للمرة الثانية، وعرف راوول في الوافد الجديد القزم الأعرج الذي سبق أن رآه هو الآخر في القارب، وقال:

- إننى أهنئك يا عزيزي البارون.. لا ريب أنك اخترتهما من حديقة الحيوانات.

وإذ تقدم الشقيان منه بادرهما قائلاً: اخفضا أيديكما أيها الخادمان

ألبير، سوف تقدم لنا القهوة في الصالون.

ثم ألقى نظرة إلى ساعته وأردف يقول: العاشرة والنصف. ما أسرع ما يمر الوقت.. ذلك أن المرء لا يتملكه الضجر في بيتك يا بارون. آه. أستطيع القول إنك تعرف كيف تسرى عن ضيوفك، ولكن مما يؤسف له أنني مضطر إلى الانصراف في خلال ربع ساعة.

– حقاً؟

– نعم، فإنى على موعد في الساعة الحادية عشرة إلا الربع بالتحديد.

– مع امرأة؟

– كلا، موعدى هذه المرة مع صديق لا أريد أن أدعه ينتظر.

– بل سينتظر.

– أوه، أبدا.. فإذا لم أخرج من بيتك بعد ربع ساعة. فسيرسل طردا صغيرا إلى عنوان بالذات، فهل تخمن ماذا يوجد في هذا الطرد؟

كلا. أنت ضيق الأفق يا بارون.. فيه بكل بساطة قطعة من الوراقة مع شرح واف بطريقة استخدامها.

وصب راوول لنفسه قليلا من النبيذ وعقد ساقيه وألقى ذراعه فوق مسند مقعده في غير اكتراث، وجرع شرابه في بطء وفي نهم في

حين انقلبت سحنة البارون، وعاد راوول يقول:

– أنت غبى.. وكنت أظنك على جانب ولو يسير من الذكاء! كيف خطر لك أنه يمكن أن أعرض نفسي لخطر داهم دون ترو.. انصرفا يا هذان.

نظر الخادمان إلى جالسيران فهز هذا رأسه فوضع ألبير المسدس أمامه، وانصرف مع زميله وهما يتذمران وقال راوول:

– هذا عين العقل.. والآن؟

المذكرات؟

لم يبق غير سبع دقائق وأرجو أن تكون ساعة صديقى مضبوطة وألا تقدم.

قال البارون:

– أيها الوغد.

– إننى لا أطالبك باعتراف.. المذكرات!

نظر البارون إلى المسدس، وبدا للحظة كأنه يتردد ثم نهض، وهو يلقى بمنشفته على الأرض.. ومد راوول يده في هدوء وأمسك بالمسدس وقال:

– تخطئ إذ تلهو بمثل هذه اللعبة، فإن المصائب تقع بسهولة وفتح الخزان وتحقق من أن رصاصة قد أطلقت منه ثم أعاد المسدس فوق الغطاء، وكان جالسيران في الغرفة المجاورة يبحث في خوان وهو يسب ويلعن. وبدون أن ينطق بكلمة ألقى بالكتاب فوق المنضدة، وهو كتاب ضخم مجلد بالجلد وعلى سطح غلافه تاج الكونتية. وتصفحه راوول على عجل. كانت الصفحات مغطاة بكتابة دقيقة ضيقة حتى الهوامش. وقال:

– هذا حسن.. فلترقد روح سيرول في سلام.. إليك نصيحة صغيرة يا بارون.. تجنب نورماندیا.. فالجو فيها رطب ورديء.. والرطوبة ضارة بروماتيزمك.

ووضع الكتاب تحت إبطه وخرج وهو يصفق الأبواب بالجدران تفاديا لأية مفاجأة.. ولكن الخادمين كانا قد اختفيا.. وتوقف وصاح وهو على البسطة:

– اعلم يا عزيزى البارون أن البصمة الدامية إن هي إلا مجرد مزحة.

ثم أسرع إلى الحديقة وهو يضحك.

وبعد نصف ساعة كان ينضو عنه ثيابه في مسكنه الذي يتخذه في بوليفار بيرير، وحدث نفسه قائلاً:

– لا أستطيع الاحتمال.. ولكننى غلبتك على كل حال يا بارون وقهرتك. ولا شك الآن أنك تتميز غضباً وتتلوى فوق النار، أتحرق أقدام الشيوخ.. أنا بدورى أشويك على نار هادئة.

وتثاءب طويلاً، وأخذ يرقص وهو بالبيجامة في مرح ويقول:

– أوليه! رقصة الشبح! فليسقط الأرستقراطيون.. وفكر فجأة في الفتاة الشقراء، هناك، في قصر الجميلة النائمة وتمتم:

– آه أيتها الأميرة! لو أنك رأيت فارسك الجميل.

وتنهد واستلقى فوق الفراش وفتح الكتاب، ولكن التعب حل عليه فجأة وغلبه على أمره فقال:

– غدا العمل يا عزيزي لوبين.. يكفي ما فعلته اليوم.

وأطفأ النور ونام على الفور.

وكان النهار قد طلع منذ مدة عندما استيقظ.. وكانت أول حركة منه أن مد يده نحو الطاولة ولكنه لم يتمالك من أن يطلق صيحة، فقد اختفت المذكرات.

الفتاة البائسة

دفع الغضب براوول خارج الفراش وأسرع إلى الباب. لم يفكر السارق حتى في أن يغلقه خلفه، وكذلك باب الردهة كان مفتوحاً.

وعاد إلى غرفته وهو يرتجف من الغيظ. لقد غرر به ولم تكن السرقة هي التي أخرجته عن طوره وإنما الجرأة التي تمت بها... إنه خسر المعركة.. ليكن.. فهذه أخطار المهنة، ولكن أن يسترد البارون المذكرات تحت أنفه فهذا ما لم يستطع أن يهضمه. وتملكه في نفس الوقت خوف أصم، فقد عرفت جرأة العدو على حقيقتها مرة أخرى وتأكد من تصميمه. ستكون المعركة ضارية تحفها الأخطار، لا رحمة فيها ولا هوادة، وأرغم نفسه على الضحك، ولم يلبث، وهو يقوم بتمريناته الرياضية الصباحية، أن ابتسم وهو يفكر في الهجوم المضاد... صحيح أن المذكرات الآن بعيدة عن يديه. ولكن يبقى الشيخ، آه أما هذا فسوف يحمله على الكلام، وبأسرع ما يكون.

وصلصل جرس التليفون، وكان يتوقعه، فتناول السماعة:

– ألو... هل تعرف صوتي؟

نعم يا صديقي العزيز.. هو أنا، يجب أن أعتذر لك، فأنا لم أحسن استقبالك أمس... فقد كان العشاء متواضعاً، وقد استولى على الخجل فلم يغمض لي جفن، وقلت لنفسي ماذا لو أقوم بزيارة قصيرة لهذا العزيز راوول؟

كانت بطاقتك معي وعليها عنوانك. وكان الوقت متأخراً بعض الشيء، ولكن الحرب هي الحرب، أليس كذلك؟

وبهذه المناسبة، أسديك نصيحة، وهي أنه، يجب أن تغير أقفالك، فإن دخول مسكنك من أسهل الأمور، وعليه، فقد دخلت، ولكن ماذا أرى؟ هذا العزيز دابنياك ينام كالملائكة.

لم يطاوعني قلبي على إيقاظك، فأنا لست رجلاً شريرا... واكتفيت بأن آخذ معي تذكاراً... تذكاراً تافهاً إشارة إلى مروري، وإذا كانت المذكرات قد أثارت اهتمامك حقاً لوجدتك عاكفاً على قراءتها، ومع ذلك فإنني أؤكد لك أنها جديرة بأن تقرأ... فهي تحتوي على أشياء... وأشياء. وسوف أحرص عليها بعد قراءتها ولكن هل تعرف ما يجب عليك أن تفعل؟

وتبدل صوت البارون فأصبح ضارياً وهو يستطرد قائلاً:

– عليك أن تستقل أول قطار إلى إيطاليا وأن تمضي هناك بعض الوقت للاستجمام بعيداً عن باريس... بحيرة كوم مثلاً ... أو البندقية إذا شئت.

قال راوول:

– وإذا رفضت؟

– سوف تندم على ذلك، فأنا رجل كريم ويحزنني أن يقع لك شيء، كلا، لا داعي لأن تشكرني... وإذا أتيت مرة أخرى للعشاء فأخبرني قبل ذلك، فإنني أعلم أنك رجل أكول حقاً.

قال راوول: أوه... إنني رجل بسيط... لن أطلب منك أكثر من هذا الطبق الذي تجيد طهوه.

– آه.. وما هو؟

– الأقدام المشوية.

وأعاد راوول السماعة... كانت له الكلمة الأخيرة، وكان هذا عزاء ضئيلاً، وإذا أصر الشيخ على الصمت... ولكن لا... إنه يريد أن ينتقم من الذين اعتدوا عليه، ولن يستطيع مقاومة استجواب يتم برفق...

سيكشف لمنقذه عن سر قصر يونرفيل، وسيضطر البارون إلى الرضوخ للأمر الواقع، وفي تلك اللحظة بالذات هزأ راوول بالسر لأنه لم ير فيه إلا الوسيلة للانتصار على غريمه ولإعادة سخرياته وتهكماته إلى حلقه.

وارتدى ثيابه على عجل. ولم يطق البقاء مكانه. ودار المحرك عند أول دورة، ووثب راوول وجلس أمام عجلة القيادة. وكانت السيارة في حالة جيدة، ولكنها في ذلك اليوم بالذات كانت أكثر من ممتازة. لم يقع لها أي عطل ولم تنفجر عجلة من عجلاتها، ولم تلتق بغير بضع عربات يجرها أصحابها باليد في الطريقة النورماندي، وكانت السيارة تتجاوزها كالعاصفة، تخفيها على الفور موجة من الغبار، وفي آخر الضحى أبصر راوول قبة جرس كنيسة نوتردام دي جراس.

– حسنا يا عزيزتي فيكتوار ... والمصاب

وكان قد أسرع فدخل الغرفة يدفعه الغضب إلى التصرف والإسراع بالعمل وإلى أن يعرف كل شيء على الفور... وتمتم برونو:

– صه، إنه ينام.

– هل تكلم؟

– لم يتكلم بعد.

– والحروق؟

– في طريقها إلى الالتئام.

– عجل بتقريرك أيها الطبيب... هل ينبغي أن أنتزع منك الكلام انتزاعاً ماذا يقولون في البلد؟

– لا شيء.... بضعة أسطر في الايكو دي تروفيل فحسب. يعتقدون أن الشيخ ... الأب برناردان كما يدعونه... يختفي مؤقتاً... وأنه راح ضحية فقدان الذاكرة.

أمسك راوول بمعصم برونو وقال:

– ولا كلمة ... احرص على ألا يعلم أحد بوجوده هنا... وبعد؟ ألم يتكلم أحد عن القصر؟ وعن نوم أصحابه؟

هز برونو رأسه فعاد راوول يقول:

– طبعاً، فلم يفطن أحد لما حدث.

وعاد برونو يقول: وقد أقبلت الشرطة من أجل الشيخ. هذا ما سمعته في الحانة، فقد تجولت في البلد كما لو كنت سائحاً عادياً، ولكن الأهالي هنا يرتابون في الأجانب.

همس راوول:

– استمر... قل كل شيء.

كان يراقب الشيخ برناردان، فقد لاحظ ارتجافة الحاجبين وعرف أن الرجل لا ينام وأنه يصغى، وأدرك لعبة المصاب وفهم أن برناردان لن يستسلم بسهولة، فقد انتزع من القصر وأصبح لا يرى في كل مكان غير الأعداء، وهو الآن، إذ يسترد قواه، يلوذ بالصمت ويحتمي به ويحصن نفسه به بكل العناد المعروف عن الفلاح النورماندي.

– حسناً يا برونو ... دعنا الآن.

وجلس راوول على حافة الفراش، وفي رفق غير متوقع وضع يده على كتف الشيخ وقال:

– هيا يا جدي... حان الوقت لكي تفتح عينيك... راوول دابنياك، هل تعرفه؟

القلب النبيل الذي أنقذك من الخطر مجازفاً بحياته. ولكنه قد لا يستطيع إنقاذك دائماً... إنني واجهت الأخطار العاجلة ووضعتك في مكان أمين، وقدمت لك طبيباً وممرضة، ولكن يجب أن تساعدني الآن.

راحت عينا الشيخ المسكين الرماديتان النصف مطبقتين تحت أهدابه المسدلة تفحصان الرجل المجهول المنحني فوقه والذي يحس بسلطانه كانعكاس نار الموقد في حين عاد راوول يقول:

– يجب أن تساعدني، وليس ذلك لصالحي وإنما لصالحك أنت،

فأنت تعلم تماماً أن أصدقاءك الثلاثة الذين عذبوك في المحجر لن يتركوك في أمان.

وأمسك برناردان من كتفيه وانحنى فوقه، كمصارع يلقي بغريمه على الأرض، وأردف يقول في لهجة خطيرة:

– فإنني أعرفهم... وأعرف قسوة زعيمهم، ومهما فعلت فسوف يعثرون عليك. وسأصل عندئذ بعد فوات الأوان... ولكن إذا تكلمت فقد أستطيع إنقاذ كل شيء... دم من إذن؟

تسارعت أنفاس العجوز وفتح فمه، وأدرك راوول أن عملاً غامضاً يدور في هذا الذهن الذي لازال متأثراً من العذاب الذي تعرضه له ومن الإرهاق.

– دم من؟

خفض برناردان جفنيه في بطء وبدا وجهه متجمداً تحت غضونه كوجه الميت، واعتصم بصمته منطوياً على سره، وانتظر راوول قليلاً ثم اعتدل واقفاً في سكون، وجفف بمنديله العرق الذي يتصبب من جبينه وتمتم يقول:

– أنا رجل صبور، ولا يمكن أن تتصور إلى أي حد أستطيع الصبر، سأنتظر الوقت الذي لابد منه... ومقامك هنا لا بأس به، وسأظل

محتفظاً بك، ولكنك لست أسيراً... إنما أنت تحت المراقبة فحسب... عندما تريد أن تتكلم تكفي إشارة بسيطة وتجدني أمامك... وعندئذ نستطيع أن نفعل معاً عظائم الأمور. وسوف ترى. وأنت على حق. ولكن خلف راوول عشرة رجال آخرين... وعشرون أسطورة.. إن تاريخ فرنسا أمامك في هذه الغرفة... مرحي يا برناردان، أنت رجل محظوظ لأنني أهتم بك، وأقسم لك أننا سنمضي معاً حتى نهاية المغامرة.. بل إنني سأعترف لك بشيء.

وأمسك راوول فإن أنفاس الشيخ انتظمت... غلبه النوم، وإذ رأى راوول ذلك خرج على طرفي قدميه، وكان برونو ينتظره في الردهة فسأله: حسناً.

– إن العجوز شديد المراس، ولكن سينتهي به الأمر إلى أن يتكلم. استمر في مراقبتك له. أما أنا فسوف أستبدل ثيابي ثم أمضي إلى القصر.

وأخذ راوول من سيارته حقيبة سفر ضخمة، وبعد عشرين دقيقة كان قد اتخذ هيئة صحفي شاب يرتدي جاكت من الجوخ وتتدلى من كتفيه آلة تصوير... وعانق فيكتوار ثم قال: سأعود الليلة يا عزيزتي فيكتوار فكفى عن التأوه والنواح...

أقول لك أنني لا أتعرض لأي خطر، والدليل أنني أريد أن أتناول

عند عودتي طبقاً من العجة اللذيذة التي تجيدين صنعها... وجلس في سيارته التي يعلوها الغبار وانطلق في سرعة عادية في طريقة إلى يونرفيل.

كان يجب أن يجمع شتات أفكاره وهو أمام عجلة القيادة إذا ما أراد أن يبني خططه للمعركة، ولكنه في هذه المرة كان لابد له من أن يعترف بأن الموقف يتجاوز كل قدراته، فالمذكرات بين يدي البارون، والشيخ يرفض أن يعيد ما سبق أن أدلى به تحت لسعة الألم، فأين يوجه الهجوم؟

وإلى أين تقوده هذه الزيارة التي يزمع أن يقوم بها للقصر... كان راوول يتخبط، وأحنقه شعوره بالعجز في حين أن سرا هائلا يتعرض لأن يكتشفه بعض المجرمين الأشرار الذين لا يميزهم عنه شيء غير أنهم لا يتورعون عن استخدام العنف...

ولا ريب أن هذا السر هائل حقاً لكي لا يتردد البارون في التعذيب والقتل كما لو أن الوقت لا يسعفه وكما لو أنه إذا ما مضى تاريخ محدد ولم يعتد إلى هذا السر يكون الأوان قد فات، وما كان لشيء آخر أن يثير حنق راوول هكذا... كان السؤال يدور في رأسه دوران محرك السيارة... دم من؟ دم من؟ كان السر يدور حول الدم ويتسبب في العنف والموت.

وأدخل سيارته عند مدخل يونرفيل ومضى إلى القصر في خطى وئيدة غير مكترث بحر الصيف، وفي منتصف الطريق اضطر لأن يبحث عن مكان يلجأ إليه على حافة الطريق لكي تمر سيارة تنطلق بأقصى سرعة... ومع ذلك فقد وجد من الوقت متسعاً لكي يعرف الرجل ذا الحاجبين الكثيفين والوجه الصارم الذي يجلس بجوار السائق، وتذكر الوجه الذي رآه على ضوء مصباحه الكهربي في الليلة الماضية في القصر... هوبير فيرانج ... وراق له ذلك فإن غياب فيرانج سيترك له مطلق الحرية... وأحس بالقوة والنشاط وعاد يمشي... وكان هناك شرطي يتحدث مع امرأة قروية تحمل دلوا من الماء فاقترب راوول بادي الفضول كالصحفي الحقيقي وقال في رفق وفي مرح:

– صباح الخير ... ريشار ديمون، صحفي بجريدة ايكو دي فرانس.

سكت الآخران وقد بدا عليهما الانفعال... وألقت المرأة دلوها وجففت يديها... وحياه الشرطي، وقال راوول:

– سمعت القوم يقولون إن رجلاً اختفى، وكنت أمر بهونفلير فرأيت أن أتحرى الأمر قبل أن أعود إلى باريس.

وكان يبدو صادقا، وانتزع عطفهما وإعجابهما بحيث لم يسع الشرطي إلا أن يقول:

– أوه، كل ما في الأمر أن الأب برناردان طاب له أن يسري عن نفسه قليلاً وآثر أن يختفي بضعة أيام كما سبق أن فعل، أليس كذلك يا أبولين؟

هزت أبولين رأسها وهي تشعر بشيء من الارتباك إذ دعاها الشرطي باسمها المجرد أمام رجل غريب، وقالت:

ــ لا داعي للاهتمام فهو لم يعد يحتفظ بكل قواه العقلية ... وسيعرف كيف يعود وحده... إن مواطنيك الباريسيين لديهم مشاغل أخرى بالتأكيد.

وعاد الشرطي يقول:

– إذا أردت نصيحتي فالزم الصمت فإن مسيو فيرانج لن يروق له أن تضخم الصحافة مثل هذا النبأ التافه.. ثم إنه طويل الباع ولن يقف ساكتاً.

– لم أكن أعرف هذا القصر... إنه رائع.

اصطبغ وجه أبولين سروراً، وفتل الشرطي شاربه وقال:

– أجل .. وإن القوم يأتون من بعيد لرؤيته ولكن مسيو فيرانج لا يسمح لهم بزيارته، وإن كان هذا يسعد الأب برناردان، فهو يعتبر القصر قصره، وله العذر في ذلك فقد قضى فيه كل عمره.

وتدخلت أبولين فقالت: بل إنه ولد فيه.

أخرج راوول آلة التصوير من جرابها وألصق عينه بعدستها ثم قال: وكيف السبيل إلى مقاومة هذه الابتسامة الفتية وهذا الظرف البالغ؟

وقالت أبولين: يجب أن أستأذن الآنسة.

وقال الشرطي: الآنسة لوسيل، ربيبة مسيو فيرانج.

وبينما كانت أبولين تمضي إلى القصر استطرد وهو فخور بأن يظهر لصحفي باريسي أن الشرطي يمكن أن يكون شيئاً آخر غير الشخصية الكاريكاتورية التي يتندر الناس بها:

- وهي فاتنة لقيت الكثير من المصائب، فقد فقدت أبويها منذ سنتين بطريقة غبية، فقد غرقا أثناء نزهة في البحر، ويبدو أن جاك فيرانج كان مهندسا ينتظره مستقبل عظيم، باع الكثير من الاختراعات للأمريكيين وأصاب ثروة كبيرة في بضع سنين، وكان القصر معروضاً للبيع فاشتراه، ولكن يبدو أن هذا القصر لا يجلب الحظ لأصحابه، فقد فتشوا الساحل كله ولم يعثروا حتى على الحطام.

كان زورقاً شراعياً صغيراً طوله ستة أمتار، وكان مسيو جاك مغرماً بركوب البحر. أرأيت إلى عجائب الصدف؟ عندما كان يخرجان للنزهة كان من عادتهما أن يصطحبا الآنسة لوسيل معهما دائماً. لازلت

أذكر تقرير ضابط الساحل، وقد أثارتني هذه النقطة في ذلك الوقت، كان يصطحبانها دائماً ولكنهما في ذلك اليوم بالذات تركاها في القصر.

كان راوول يصغى في اهتمام كبير، وكان ذهنه يسجل كل صغيرة وكبيرة، يفحصها ويحللها ويبوبها في ذاكرته العجيبة.

وقال يسأل الشرطي: ألم يعثروا على الجثتين أبداً.. إن البحر يلفظ الجثث عادة.

– لم يلفظها تلك المرة، ولكن الشيء الذي يثير الحزن أكثر من غيره هو أن الفتاة المسكينة أصابها المرض على أثر هذا الحداد، ولم يعرف أحد سبب علتها ولكنها كانت لا تذوق الطعام ولا النوم كما تقول أبولين ... وكانت تقضي أياماً برمتها على مقعدها المستطيل في البستان، وصحيح أن البيت لا يدعو إلى المرح، فإن مسيو هوبير، القيم يقضي وقته في المصنع فهو يملك مدبغة للجلود في بون أوديمار، والفتاة المسكينة دائماً وحدها.

هناك عمها ألفونس طبعاً ولكن ما من أحد يراه أبداً، ومع ذلك فهو لا يقيم بعيداً، فقد ورث البيت الذي كان المهندس يقيم فيه قبل أن يشتري القصر.

صاح راوول وهو يضحك:

– ولكنك تعرف أكثر مما يعرفه أي محام.

ابتسم الشرطي بدوره وقال:

– هذه مهنتي. ثم إن آل فيرانج من علية القوم، ولهذا فإن الجميع يعرفون عنهم كل شيء تقريباً.

– وهذه الطفلة التي تختفي هناك، خلف حوض الزهور ... من هي؟

– آه، هي فاليري، حفيدة الشيخ برناردان. وهي الأخرى يتيمة، وجدها يقسو في معاملتها، ولكنه يعبدها، ولهذا السبب بالذات لا أفهم لماذا رحل دون أن يخبرها أين هو ذاهب.

عادت أبولين في هذه اللحظة وقال:

ــ إذا تكرم السيد أن يتبعني فإن الآنسة يسرها أن تتحدث إليه.

قال الشرطي: أنت رجل محظوظ.

بسط الصحفي المزعوم يده إليه وقال: أشكرك مرة أخرى، ولا تخف، فسوف أكون كتوماً.

وأمسك بدلو الماء وقاوم أبولين التي أرادت أن تأخذه منه قائلاً:

– دعيه .... دعيه ... سأرده إليك في آخر الممر.

كان ذلك الصحفي رجلاً ممتاز وخدوماً ولطيفاً، فكيف لا تسرع أبولين وترد على أسئلته:

إنها تعرف أن الصحفي يجب أن يكون فضولياً، ولهذا راحت تبوح له بكل ما تعرفه، نعم، إنها خادمة وطاهية في نفس الوقت، وزوجها أشيل، يعمل بستانياً وسائقاً في وقت واحد. أما العجوز برناردان فإن وظيفته غامضة، فهو يروق له أن يقول عن نفسه إنه رئيس الخدم لأن هذه الصفة كانت تعيد إلى ذهنه الأيام الخوالي.

«وهو رجل غريب الأطوار حقاً ويجب أن تراه وهو يأخذ كل شيء مأخذ الجد، وأن تسمعه وهو يبرر لنفسه .. رجل مزعج .. وحفيدته المسكينة! إنه يبذل كل جهده لكي يضيع عليها المدرسة في أغلب الأوقات. يقول إنهم لا يعلمونها هناك شيئاً غير الأكاذيب ... شيخ مجنون... والآن، أعد إلى دلوي فقد وصلنا».

أفضى بهما ممر يدور بالقصر إلى البستان، كانت لوسيل هناك، تحت شجرة كستناء، ممتدة فوق مقعد مستطيل والكلب عند قدميها، وكانت تقرأ جريدة، وكانت أكثر جمالاً وأكثر فتنة مما رآها في الليل وهي سادرة في نومها. واعتدل البولدوج على قوائمه المعوجة وراح يزمجر.

- ارقد يا بولوكس.

كانت تتكلم بذلك الصوت المتعب الذي يتكلم به المرء الذي يفقد الأمل في الشفاء وألقت الجريدة فوق ركبتها ورمت الزائر بابتسامة حافلة بحزن مثير، وانحنى راوول وقال:

ريشار ديمون، من جريد ايكو دي فرانس

وقالت لوسيل: أبولين، امضي وهات مقعداً.

ولكن راوول أسرع يقول محتجاً: لا داعي لذلك، عندما يكون أمام المرء مرجة جميلة مريحة كهذه فإنه يكون في غنى عن المقعد

وجلس فوق العشب، عند قدمي الفتاة، بدون تكليف، ثم ربت على رأس البولدوج، بين أذنيه، وسال لعاب الكلب لفرط سعادته واستمرأ المداعبة، ولاحظت لوسيل ذلك في دهشة وتمتمت:

- هذا غريب، ومع ذلك فإن بولوكس شرس.

- هذه مهارة اليد، ثم إنني أعرف كيف أعامل الحيوانات والرجال.. لست أخرق إلا مع الفتيات.

وانفجرا ضاحكين معا، واكتسبت وجنتا لوسيل قليلاً من اللون، وفكر راوول «اضحكي يا جميلتي، ولا تفكري في أيام الشقاء.. أريد

أن تحبي الحياة وأن تفتتني بها وأن تنظري إلي بهذه النظرة الساحرة دائماً...».

واقتطف زهرة من زهور اللؤلؤ، وأخذها بين أسنانه، وقال:

– كان يسعدني أن أهنئك على هذا القصر الجميل ولكنني علمت أنك لقيت فيه من التعاسة والشقاء أكثر مما لقيت من سعادة وهناء... ولهذا يجدر بنا أن يقتصر حديثنا عنك أنت.

– أوه .. عني أنا .. أنا لست شيئاً... ما دمت تعرف كل شيء فلابد أنك تعرف.

وتهدج صوتها فقال ريشار ديمون المزعوم: هيا، تشجعي ... أنت في السابعة عشرة... ولا ترين غير وصى متذمر وخدم مذعورين وذلك الشيخ المجنون برناردان... تشعرين بأنه لم يعد لك ماض ولا مستقبل ويتملكك الضجر بحيث تدعين المرض لكي تشعري بشيء من الرعاية والاهتمام عوضاً عن المحبة والحنان.

كانت لوسيل تصغي إليه في دهشة متزايدة، واستطرد راوول يقول:

– ولكنك ذات مواهب متعددة، وإذا كنت تتوهمين أوهاماً كاذبة، وإذا كنت تتصورين أنك أشقى المخلوقات.

قاطعته لوسيل قائلة: ولكنني أشقى المخلوقات.

وتصاعدت الدموع إلى عينيها، وتمتمت: أوه، لماذا لم يصطحباني معهما في ذلك اليوم؟ لماذا؟ لكان الموت قد طوانا نحن الثلاثة .. لقد كنا سعداء جداً.

قال: تكلمي استمري، فأنا صديقك.

وأخذ يدها وضغط عليها في رفق ليعيد إليها قليلاً من الدفء، وعادت تقول في هدوء أكثر:

– ماتا في التاسع عشر من أغسطس، بعد تسعة عشر عاماً، يوماً بيوم من أول لقاء لهما.. وهو لقاء مأسوي حقاً، فقد اشترى أبي قبل زواجه بيتاً خلف كنيسة سانت إدريس ملحقاً به بيتاً آخر صغير للصيد وهو عبارة عن كوخ ملتصق بالصخور أمام خليج صغير لم يكن يؤمه أحد على الإطلاق وكان يستجم فيه ويرسم لأنه كانت له كل المواهب. وذات يوم سمع بعضهم يصرخ طالباً النجدة... كانت فتاة.. أمي المقبلة... كانت في بلاج مجاور فجرفها التيار، ولو لم ينقذها أبي في الوقت المناسب لغرقت لا محالة... ولم يمنعهما ذلك من الموت غرقاً على كل حال... بعد تسعة عشر عاماً.. هل تؤمن بالقدر يا مسيو ديمون؟

– طبعاً، مثل جميع الذين تحفل حياتهم بالمغامرات، وماذا حدث لذلك البيت الصغير؟ هل باعه أبوك؟

– كلا بل احتفظ به للذكرى. ولكنه لم يكن يختلف إليه، ولا ريب أنه في حالة يرثى لها الآن.

راح راوول يفكر، وبدأ بتلك الغريزة العجيبة التي أتاحت له كسب كثير من المعارك يخمن أن خلف هذه المصادفات شيئاً كئيباً، ملتوياً، أشبه بمؤامرة. قال: هل يمكنني أن أزور هذا البيت؟

أجفلت لوسيل على الفور وقالت

– إنني بحت لك بسر ولا يجب أن يعرف به أحد.

– اطمئني ... لن يعرف أحد.

وكانت بهجته تفيض بالإقناع بحيث اطمأنت لوسيل على الفور.

– سر في طريق الصخور نحو ثلاثة كيلومترات أو أكثر قليلاً بعد كنيسة سانت إدريس، وهناك تجد درباً منحدراً والبيت المعروف باسم «الصخرة الكبيرة».

سؤال آخر... أظن أن أمك كانت عاطفية جداً... ورومانسية جداً؟

– نعم، وإنني أشبهها كثيراً.

قال راوول يحدث نفسه: طبعا .... بدأت أفهم.

ووثب على قدميه وهو ينهض متلهفاً.. أحس بالرغبة في إدهاش الفتاة وفي النضال من أجلها حتى يعيد إليها البسمة، وفي نفس الوقت حس بأن خطر خفياً يحوم حولها. وكان الإحساس من القوة بحيث ألقى نظرة فاحصة على الغابة، ولكن لو أن أحداً كان يختبئ على مقربة منهما لنبح الكلب.

وقال يسأل الفتاة: هل تثقين بي؟

رفعت إليه نظرة حزينة من عينيها البنفسجيتين وقالت في تفكير:

– إنني لا أعرفك يا سيدي، ولكنك تختلف كثيراً عن الآخرين... نعم إنني أثق بك.

– يمكنني ذلك، بل يجب أن تثقي بي. والآن أصغى إلي... عودي إلى البيت، ولا تتحدثي عن زيارتي مع وصيك. وغداً، في تمام الساعة الثالثة سوف نلتقي، ليس هنا.. بل خارج القصر... عند ناصية البستان والطريق قد يكون لدى الكثير لأخبرك به، كلا لا تسأليني فلازال الوقت مبكراً. إلى اللقاء أيتها الفتاة العزيزة.

ابتداء من الآن، ومهما يحدث ، قولي لنفسك إنك لست وحدك وإن هناك شخصاً على مقربة منك، يسهر في الظلام ولن يسمح لأحد أن يمس شعره من رأسك.

– هل تظن إذن أنني في خطر؟

وضع إصبعاً على شفتيه وقال: غداً... الساعة الثالثة.

***

قرية برفيل... والبحر على نهر السين، وطريق الهافر... كان في مقدور راوول اجتياز هذه الطرق مغمض العينين طالما بدت له مألوفة.... أهذا السبب كان يشعر بكل هذا النشاط وهذه الحيوية؟

وقال يحدث نفسه:

– «هيا، كن صريحاً... لا تحاول أن تخدع نفسك ... اعترف أنك سعيد، سعيد بصورة غير معقولة لأنك تريد إنقاذ هذه الفتاة اليتيمة الضائعة... لأنها جميلة ولأنك لوبين... لأنك غبي لا يرجي صلاحك ورغم كل شيء فإنني أحب نفسي كما أنا»...

واجتاز إحدى القرى والطيور تحلق فوقه مذعورة، واستأنف منولوجه قائلاً:

– ليست مصادفة أن يموت جميع أصحاب قصر يونرفيل الواحد بعد الآخر بطريقة مأسوية، وليست مصادفة أن يعذب البارون الأب برناردان، فهل هناك علاقة تربط بين كل هذه الأحداث؟ وما هو الخطر الذي تتعرض له لوسيل... لا أدري، ولا داعي للعجرفة. إن مثل هذه الأحداث لا يمكن أن تجوز علي فإنني أملك أثراً صغيراً وهو أن جاك فيثرانج وزوجته قد لقيا مصرعهما قتلاً... ولكن كيف؟ ولماذا؟ هذا أمر غامض... القديس جان يخلف يعقوب، ودارتنيان.. حسناً. لا داعي للإصرار.

وبلغ صخور سانت إدريس... وأشارت له إحدى الفلاحات إلى كوخ «الصخرة الكبيرة» كيلومتران آخران ويرى الدرب. ولكن يجب أن يتوخى الحذر لأنه وقعت انهيارات أثناء الشتاء الماضي. وترك راوول سيارته في أحد المنعطفات وتابع طريقه على قدميه.

وعادت إلى ذهنه ذكريات حاول جاهداً أن يقصيها عنه، فقد خيل له، وهو في بقعة أخرى، غير بعيدة عن المكان الذي هو فيه الآن، بينما كان يبحث عن مأوى يخفي فيه شدته وضيقه إن كل شيء قد انتهى، وأن الحياة، لن تواتيه بعد ذلك بأية بهجة أو أي مرح. ولكنه رجلاً مثله كان خليقاً بأن يجتاز في حياة واحدة حشداً من الحيوانات المتتابعة.

وأحس بأعجوبة بأنه جديد وأنه ينبض نشاطاً وحيوية. لن يستعصى عليه سر يونرفيل مدة طويلة فما من شيء استعصى عليه حتى الآن.

انحدر الشاطئ الصخري، ولم يلبث أن اكتشف الدرب الذي ينحدر خلال أرض معشوشبة وقال:

– يا للشيطان ... لقد كان السيد فيرانج مغرماً بالتسلق... ولكن سرعان ما تحقق أن بالطريق نتوءات طبيعية في مقدور الإنسان أن يعتمد عليها في هبوطه وصعوده، وتجعل الطريق آمناً بعيداً عن الأخطار رغم الفضاء الذي يبدو كأنه يكمن دائماً للمتسلق. ولم يلبث أن بلغ بلاجاً ضيقاً محصوراً بين نتوءين صخريين تهيمنان عليه من عل ... وكان الإحساس بالوحدة والعزلة يكاد يكون مضنياً، وكانت الصخور تمتد حتى الأمواج الأولى... ورأى على اليمين كوخاً بدا له أن يستند على الصخور...

وكان لابد للمرء من بلوغ البلاج لكي يراه ... ودار حوله وتحسس مصاريعه بيده، وكانت لا تزال متينة، وكان الباب موصداً.. وقد حولت الرطوبة جدر أن الكوخ إلى اللون الأخضر..

ولكن الكوخ نفسه قاوم تقلبات الجو المختلفة رغم إحساس الهجران الذي يبدو عليه... وبين ظهر الكوخ والصخور مكان ضيق

مزدحم بالأنقاض والبقايا: أدوات قديمة ومجاديف وسلم نخره السوس وأكله الملح وصناديق للصيد.. ووضع راوول يديه على خاصرتيه وراح يفحص في تفكير المنظر الغريب الذي أمامه. وتمتم:

– كل هذا سخيف... سخيف... ولكنه جذاب... يستطيع من يعيش هنا الاستغناء عن العالم وما فيه.

وأخرج من جيبه علبة مسطحة تحتوي على عيدان معدنية مختلفة الأشكال وراح يعالج القفل الذي قاومه كثيراً لفرط ما علاه من صدأ، وانفتح الباب أخيراً ودفع إليه بنسمة من الهواء المخزون تفوح بالعفن... ودخل ...

وألقى نفسه في غرفة لا ريب أنها كانت تستخدم فيما سبق لتناول الطعام وللنوم، فقد كان على يسارها أريكة كبيرة وفي آخرها حامل للرسم، وكانت هناك لوحات لا تزال معلقة لصق الحائط... وعلى اليمين مائدة لاثنين والأطباق معدة فوقها...

وفي بين الأطباق سيقان مسودة في طريقها إلى التلف... وفي الموقد قدر انهار فوقه كومة من الرماد... وقال لوبين:

– «كأننا في مدينة بومبي».. كان كل شيء كئيباً، لزجاً فقد الحياة بطريقة بشعة. ولكن كان الشيء الذي أثار قلقه أكثر من أي شيء آخر

هو تلك المائدة المعدة كما لو أن قليلاً من الحل دخل الغرفة ولازال بها حتى الآن متحدياً الزمن.

خلع لوبين قبعته بحركة آلية ثم تقدم بضع خطوات وفحص الأرضية، وكان يعلوها الغبار ولا تزال عليه آثار الأقدام... لم يكن هناك سبيل للخطأ... كانت آثار رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب... وفكر:

جاك فيرانج وزوجته... أراد الاحتفال بذكرى أول لقاء لهما فأقبلا إلى الكوخ، وهذا هو السبب في أنهما لم يصطحبا ابنتهما معهما، فقد كان العيد عيدهما، ولم تكن النزهة في الزورق إلا ذريعة ... أرادا أن يكونا وحدهما لا ثالث لهما و... فحص راوول الأرض من جديد وقال:

– ولم يغادر الكوخ .... هذا غريب!

كانت الآثار تتشابك من الباب حتى المائدة حتى الموقد ثم تمضي نحو غرفة أخرى تخفيها ستارة، ولا ريب أنها غرفة المطبخ... ولكنها لم تعد منها فلعل هناك باب آخر لمغادرة المطبخ؟

وتقدم راوول وقلبه يخفق شيئاً ما... ما الذي يختفي خلف هذه الستارة؟.. وأزاحها، وفجأة، تهربت الأرض تحت قدميه...

وكان الأمر سريعاً بحيث إن راوول لم يسعفه الوقت لكي يمد

ذراعه ويبحث عن نقطة ارتكاز، ووقع بشدة، ولكن السقطة كانت قصيرة خففتها الرمال... وكان باب الفخ قد عاد مكانه بتأثير زمبرك خفي في صوت مدو كالفخ حين يطبق على فريسته.

المقبرة

كان الظلام شاملاً . . . وجلس راوول وتحسس نفسه . . لم يصب بأي جرح . . . ومد يديه حواليه ولم يلتق في كل مكان بغير الرمال . . .

كان موجوداً في قبو، وكان البيت مشيداً على أساسات خفيفة، ومع الزمن تغلبت الرمال على الاستحكامات فجأة وبدأت تتسرب مياه البحر داخل حطام... ووقف راوول واشرأب على قدميه بقدر المستطاع، ورفع ذراعاً إلى ما فوق رأس ولم يلتق إلا بالفراغ...

وكان المصباح الكهربي الذي لا يفارقه مطلقاً قد تحمل الصدمة ولم يعكس غير شعاع خفيف، ولكنه كان من الكفاية لكي يضيء باب القبو... لم تكن به أية حلقة ولا أية خشونة... كان الزمبرك القوي الذي يعيد الباب الخشبي القلاب إلى مستوى الأرض مركباً في تجويف من البناء لا يمكن الوصول إليه.

أدار راوول شعاع المصباح الكهربي حوله... كان القبو واسعاً وشاغراً تماماً... لم يكن به أي مقعد أو أي صندوق يمكن الوقوف عليه للوصول إلى الباب القلاب... وحتى لو كان هناك ما يستطيع أن يقف عليه ويصل إلى الباب فما كان في مقدوره أن يفعل أي شيء لأن الباب نفسه كان أملس وما كان في استطاعة أي مخلوق أن يزحزحه على الإطلاق...

ومع ذلك فقد انعكس نور المصباح على شيء تألق في أبعد ركن من القبو، فاقترب راوول منه وما كاد يفعل حتى تفصد العرق من جبينه وقد تملكه القلق، فإن الشيء الذي تألق لم يكن غير رأس ميت... جمجمة بيضاء كعظمة سمك السبيرح التي يلقاها المرء على الساحل.. ومن طبقة الرمال الخفيفة التي تجمعت خمن راوول هيئة هيكل عظمى يعانق هيكلاً آخر، أقصر قامة من الأول جمجمته لا تزال تلتفت نحو وجه حبيب... مات العاشقان أحدهما في حضن الآخر، وكل منهما يبتسم لصاحبه ابتسامة الأبد.

أطفأ راوول مصباحه... هذا الرجل الذي واجه العديد من الأخطار وسخر الموت، المرة بعد المرة أوشك أن يقع فريسة لانهيار عصبي ... أدرك في لحظة واحدة الحقيقة التي يتوقعها...

فقد لقى جاك فيرانج وزوجته حتفهما قتلاً، بعد أن حول القاتل بكل صبر وكل دقة عش الغرام إلى فخ قاتل، فإن فريسته كانا يأتيان إلى «الصخرة الكبرى» في كل سنة، ووجد كل وقته لإعداد الباب القلاب وهو على يقين من أنه في اليوم المرتقب سوف يطبق على فريسته... وقد نجحت مكيدته البشعة، ولسوء الحظ جاءت الآن فريسة ثالثة ووقعت في الفخ، ولا مفر لها الآن من أن تشارك الفريستين السابقتين مصيرهما، فما الجدوى الآن من الصياح والصراخ والاستنجاد؟

وما جدواه من أن يفعل ما فعله الزوجان من قبل عبثاً؟

تمدد راوول فوق الرمال الرطبة وعقد يديه خلف عنقه وحاول أن يفكر في هدوء... لم يكن هناك من يعرف أنه قادم لزيارة هذا البيت وعليه فلن يخطر لأحد أن يهبط إلى هذا البلاج وأن يفحص المكان ويدخل البيت... كانت هناك طبعاً السيارة التي تركها في طريق الصخور، وسوف تثير دهشة الناس ويذكرون أمرها للبوليس... ولكن التحقيق لن يتعدى أكثر من ذلك، ولا يبقى أمامه الآن إلا أن يحفر نفقاً، ولكن بماذا؟

بيديه؟

خلع راوول سترته وطواها بعناية وجثا بجوار الجدار وبدأ يحفر،

ولكنه لم يلبث أن استسلم للواقع، فقد كانت الرمال مائعة وكانت تنساب في الحفرة كلما ازدادت اتساعاً، وكان لابد من أن يرشها بالماء ولكن من أين له الماء؟

ومع ذلك فقد بقى راوول على إصراره وراح يجمع الرمل بملء يديه ويلقيها بعيداً من فوق كتفيه... وأفلح في إحداث حفرة صغيرة ولكنه سرعان ما توقف وقد نال منه الإعياء كل منال... أحس في الظلام أن هذه الحفرة عميقة جداً وتخبط وهو يبحث عن جاكتته.. أين وضعها؟ وتقدم وهو على ركبتيه ويده مبسوطة إلى الأمام وهو يخشى في كل لحظة أن يمس الهيكلين.

وانتهى بأن عثر عليها أخيراً وأشعل مصباحه... لم يكن عمق الحفرة ليزيد عن ستين أو سبعين سنتيمتراً ... وقد اقتضت هذه المسافة الهزيلة مدة طويلة وجهداً كبير... ورأى أنه من غير أداة في يده لن يستطيع شيئاً فقد كان هذا الرجل القوي يعرف أكثر من غيره أين يبدأ المستحيل.. وجفف جبينه وحاول أن يمزح «ليس هذا بالوقت المناسب لكي أصاب بالبرد ...

آه... من لي بكأس من الشراب» ولكن الصمت كان مطبقاً بحيث لم يسعه إلا أن يرتجف... وجلس معتمداً بظهره على الجدار وقد شل

التعب جسده... وشيئاً فشيئاً تولد الخوف... ولأول مرة في حياته لم يرد ذهنه المتوقد الذي لم يخنه مرة واحدة في حياته الحافلة بالمغامرات حلا لمشكلته الحالية، ولأول مرة في حياته لم يعد لوبين بلوبين.

أي مجرم ذلك الذي ينازله؟

ومن ذلك الذي دبر ذلك الانتقام البشع وحكم على بريئين بالموت جوعاً وعطشاً ويأساً... ثم إنهما كانا اثنين، يساند كل منهما الآخر حتى اللحظة الأخيرة في حين أنه هو.. وحده لا نصير معه... وأرهف أذنيه... كان هناك صوت أصم يدوي بعيداً... صوت البحر.. كانت الأمواج تتلاطم فوق الشاطئ الصخري ولم يكن هناك أحد على الساحل... لم يكن هناك غير الخوف حوله... الخوف الممزوج بالهواء الذي يستنشقه... إنه قوي وسوف يقاوم بضعة أيام، ولكن احتضاره سيطول.

واستجمع قواه وهم بأن يصرخ... ولكن الشيء الوحيد الذي أرغمه على أن يحتفظ بهدوئه ووقاره هو إحساسه السخيف بأن الهيكلين ما هما إلا جمهور رغم كل شيء... وتخيل أنهما يراقبانه وأن كلا منهما يقول للآخر «إن لوبين ليس شجاعاً، إنه جبان خائف «وقال يحدث نفسه» إنهما على حق فأنا جبان وقد بدأ الخوف يسيطر علي،

ولكن لو أن أمامي سبباً واحداً باعثاً للأمل فسوف يرى العالم أجمع ما يمكن أن أقدم عليه.... ولكن لسوء الحظ ليس هناك أي أمل ... إنه الحادث غير المتوقع الذي لا مخرج منه... معذرة يا عزيزتي لوسيل ... لن أكون في الموعد الذي ضربته لك...».

وفجأة عرته الدهشة... إن الأمل موجود طبعاً... وهو أمل ضعيف في الواقع... لوسيل ... ولكنه سرعان ما أقصاها عن ذهنه... ستنتظره لوسيل في الساعة الثالثة، وربما تنتظره مدة طويلة ثم تعود أدراجها حزينة... لماذا تقطع هذه المسافة الكبيرة حتى الكوخ الذي يعيد إلى ذاكرتاها مثل هذه الذكريات الحزينة...

ولكن الأمل أشبه بنار صغيرة تتغذى بأوراق الشجر، وأضعف الأسباب تفلح في إضرامه... فأولاً لم تكن المسافة كبيرة جداً، وهناك دراجة في القصر، ثم إن لوسيل سيدفعها الفضول إلى أن تعرف لماذا لم يواتها هذا الرجل الذي يبدو أنه يخشى خطراً... وكان هذا الرجل قد أثار قلقها، ولأنها تريد أن تراه بأي ثمن فسوف تتوهم أشياء وسوف يستقر منها العزم وتفكر:

– إنه في حاجة إليَّ... إنه في خطر بسببي أنا، بسبب ما رويته له عن موت أبوي... وسوف تتذكر حديثهما والأسئلة التي ألقاها عليها

عن الصخرة الكبيرة»... وإذا كان هذا الصحفي الظريف لم يف بوعده بسبب بيت الصخور بلا شك... وإذا كان قد حدث له حادث ... إذا كان قد وقع ... لابد وأن تمضي لنجدته... سوف تغادر القصر وتسرع إليه... وسوف تقع بدورها في الفخ ... يا إلهي.

نهض راوول وراح يدور في سجنه ورأسه ملتهبة... كلا لا يجب أن يقع هذا بالذات... إنه يؤثر أن يموت... كان يفضل طبعاً أن يلقى حتفه تحت الشمس لغرض نبيل بدلاً من أن يحتضر كالفأر في قاع حفرة.... ولكنه سيتقبل الموت في خزي كرجل عديم النفع... المهم أن تعيش لوسيل.

وتملكه اليقين فجأة من أنها سوف تأتي لكي تبحث عنه... وبسط يديه إلى الأمام كأنه يريد أن يصدها ويردها بعيداً عن هذه الحفرة البشعة حيث تنتظرها عظام أبويها... وتعثر ووقع على ركبتيه، وراح يردد في صوت خافت:

– ليس أنت لوسيل... ليس أنت بالذات.

غلبه التعب والقلق والليل فتهالك على جنبه... وبقى مدة طويلة خائر القوى ... وتغلب النعاس عليه أكثر من مرة... وكان نعاساً تخللته الكوابيس ... ثم، ولأن اليأس وثبوط الهمة لا مكان لهما عنده

خرج فجأة من هذا الخدر الذي قام مقام النوم، وصحا وامتلأ نشاطاً، وتأهب لمواجهة الخطر... ونظر إلى ساعته ... الثامنة.. لابد أنها الثامنة صباحاً... يا للشيطان! أن يفوتني العشاء فلا بأس ولكن الإفطار... ليس هذا من الصحة في شيء.

وكان يتكلم في صوت مرتفع ليفتعل قليلاً من الضجة، ويقطع هذا الصمت الكئيب الذي لا يمكن مقارنته بأي صمت آخر... ولم يفكر في تجديد محاولته ولكنه بدافع التحدي حاول أن يقوم في الظلام بتمريناته الرياضية التي يقوم بها كل صباح وهو يقول:

- «فلأمت على الأقل وأنا في صحة جيدة».

ثم رجع إلى الحفرة وجس الأرض... كانت الرمال قد استعادت مكانها من الحفرة ولم تعد هذه الأخيرة غير فجوة خفيفة لا عمق لها... لم تكن هناك في الواقع أية وسيلة أو جدوى في حفر نفق... إن المنفذ الوحيد هو الباب القلاب ولا شيء آخر...

وعاد إلى الدائرة الجهنمية لنفس المشاريع ونفس الإخفاقات وفكر «والآن سأركز تفكيري في لوسيل... ولكن ما أغباني! ما أدراني أن هذه الصغيرة تحفل بي؟»٢٤

وجلس مرة أخرى وظهره إلى الجدار واسترسل في مونولوجه: إذا

كانت لا تحفل بي فذلك لأنك لا تفكر فيها بتركيز كبير... ولكن مهما يكن فلا خيار لك. لابد لك من أن تركز تفكيرك فيها وإلا فلا أمل لك، ركز فيها واعلم أن الحشرات تعرف بعضها البعض من مسافات كبيرة، وأنت أكثر من حشرة طبعاً، فإذا أنت ثابرت وركزت مدة طويلة فسوف تحس بوجودك حولها، وسوف تطيعك بحيث تحتل أفكارها تلقائياً ... مرها أن تأتي هنا وعندما تسمعها فسوف تصيح لكي تحذرها... ليست هناك وسيلة أخرى، ولكنني أحذرك... سيكون الأمر صعباً جداً.. أقسم لي أنك لن تنام بعد الآن.

مد راوول ذراعه وأفلتت منه سبة، ثم عكف على التركيز... لم يكن ذلك صعباً جداً، بل كان يكفيه أن يلازم لوسيل في أفكاره وأن يتبعها في غداوتها وروحاتها، بين غرفتها وغرفة الطعام، وأن يمسك المقعد المستطيل معها في نفس اللحظة وأن يدعو بولوكس، وأن يعبر غرف الطابق الأرضي الفسيحة لكي يمضي إلى البستان ويجلس في الظل ويحلم في ذلك الغريب الذي ظهر في نفس اللحظة التي أصبحت فيها الحياة من الصعوبة بحيث لا تطاق.

ووخز راوول ظهر يده... أهذا ما يقولون عنه تبادل الخواطر... ولكنك تغفو يا صديقي... هيا انتبه وقم ... إنها هي الأخرى تقوم

وتمضي لتقطف بعض الزهور... إنها تشعر بقلق مبهم... بسببك أنت، لأنه بدا لك أنك تفهم كيف مات أبواها... وهي تمضي وقتها الآن في التفكير ... إنه يعرف شيئاً، وتنظر إلى الساعة في غير انقطاع.

أضاء راوول مصباحه وأخرج ساعته... وذهل. الظهر... هكذا حالاً ... إنها ستجلس الآن إلى المائدة مع عمها. إنها تجلس أمامه في تلك الغرفة الكبيرة، وهي لا تشعر بالجوع.

رآها في وضوح عجيب. كانت تدعك كرة من لباب العيش بيديها الرقيقتين، وجاء أبولين بطبق من السمك لأن اليوم كان يوم الجمعة ورائحة القلي جعلته يشعر بأن قواه تخور... أربعة وعشرون ساعة لم يذق فيها شيئاً... وكان يقول:

– هيا، جهد صغير آخر... إن هذا السمك لذيذ، ثم إنك بحاجة إلى أن تسترد قواك، إذا كان ولابد أن تستقلي الدارجة حتى هنا.

كانوا يتناولون الطعام على مهل. وكان من وقت لآخر، ينطق ببعض الكلمات.. ودقت ساعة الحائط تشير إلى الواحدة، ساعة تناول القهوة... كان حلق راوول جافاً..

كان يركز في هذه اللعبة الرهيبة بكل كيانه وصعدت لوسيل غرفتها وراحت تصغي إلى أصوات القصر... صوت محرك السيارة وهي

تنطلق بعمها، وبعد قليل ستهتم أبولين بغسل الأطباق ... الساعة الثانية.. الثانية والنصف!

تشنج راوول. وسوف يتقرر كل شيء الآن. لوسيل تخرج من القصر من غير أن يراها أحد، وهي تخرج وتصل إلى المكان الذي تواعد معها فيه ... الساعة الثالثة.... آه يا لوسيل... ركزي بدورك وفكري معي... فكري في بقوة أكثر... إذا كنت لا أستطع موافاتك فذلك لأنني وقعت أسيراً... أسير ...

كان يجب أن يبعث بالكلمة مع الريح... كما لو كانت برقية .... لو أنها استطاعت أن تتلقاها فإنها سوف تأتي... أنا أسير ... أسير... وتوتر جسده وراح يحرك شفتيه. كان يسمع الكلمة تندفع منه وشيئاً فشيئاً أحس بالوهن تفرغ من كل طاقته، وجاءت اللحظة التي اضطر فيها أن يتوقف كالمصاب ينزف آخر قطرة من دمه. والآن، على لوسيل أن تبادر بالعمل... لم يعد لديه وقت لإرشادها...

إما أن تكون في الطريق إليه الآن وإما فالموت هو الذي يقترب منه. ولكنها في الطريق إليه حتماً لأن الأمور لا يمكن أن تمر بغير ذلك... لأن أرسين لوبين لم يخلق لكي يموت وهو كالدودة... كان لابد من المقاومة ... المقاومة... لا جدوى من النظر إلى الساعة ومن أن يتعجل

الوقت، لابد له أن يمشي كالحصان العجوز الذي يدور حول الساقية دون أن يفكر في أي شيء.

وراح يمشي مكدوداً، واهناً، يغوص في الرمل وإحدى يديه على الحائط، ويدور حول الهيكلين العظيمين، وجه كل إرادته إلى المشي، لو حدث لسوء الحظ ووقع فهو هالك لا محالة. لن يجد القوة لكي يصرخ عندما تأتي لوسيل وتتقدم نحو الفخ، لأنه لم يشك لحظة واحدة في أنها سوف تأتي، ربما في اللحظة القادمة وإنما في اللحظة التالية لها.

وراح يتنفس بقوة ويلوك الرمل الذي راح يصر تحت أسنانه وارتجفت ساقاه ووقع على إحدى ركبتيه، وراح يدلكها مدة طويلة. ممنوع النظر إلى الساعة.. كان هذا أسوأ إغراء. أما الباقي... الجوع والعطش فكان لا يزال في مقدوره احتمالهما، ولكنه إذا استسلم ونظر إلى الساعة ووجد أنها قد بلغت السادسة مثلاً فسوف يتمدد عندئذ وينتظر النهار، لأنه كان قد حسب، دون أن يعترف، الوقت اللازم للقدوم من يونرفيل بالدراجة. وبذل جهداً كبيراً وأجبر نفسه على الوقوف.

وسمع الصوت عندئذ فتجمد مكانه لفرط الذهول... هذه الطقطقة معناها أن شخصاً يطأ الحصى. ووضع يده على فمه مشدوها مغمض

العينين، واستجمع كل قواه لكي يتمكن من تحليل الصوت الخافت الذي ربما كان صوت دمه وهو يصفر في عروقه. ولكن الصوت ازداد وضوحاً وجلاء وجاء معه بالضوء وريح البحر ووعد الحياة كاصطدام بعيد لصخرة تعلن لعامل المنجم المدفون أن النجاة قريبة، ولكنه كان يعلن على الخصوص بانتصار راوول، فهو وحده، ضائع لا سند له ولا معين، وبقوة إرادته فحسب، أو ربما بكبريائه، استطاع، مرة أخرى أن يجبر القدر. وغمره إحساس عظيم بالفرح وتصاعدت الدموع إلى عينيه.... وهكذا، بكى الرجل الشديد الثقة بنفسه.

وأرسل الباب صريراً وطقطقت الأرضية فوقه، في هدوء.

وعندئذ صرخ بكل قوته، رغم جفاف حلقه وصاح:

- أهذه أنت يا لوسيل؟

هي أنت، أليس كذلك؟

ومن بعيد أجابه صوت الفتاة:

- نعم.

- حسن لا تتحركي، أين أنت الآن بالتدقيق؟

- أمام المنضدة.

يا للفتاة المسكينة! كانت تنظر إلى الأطباق وتحاول أن تفهم.

هل ترين الستارة يا لوسيل؟

إن الفخ خلفها مباشرة... نعم ...باب قلاب ينفتح إلى أسفل عندما تدوس عليه القدم.

- هل أنت مصاب؟

يا للوسيل الرائعة! كان صوتها ينطق بالقلق... قلق كانت تجهل معناه ولكن راوول اكتشفه وهو يرتجفه.

ابتعدت الخطوات، ولم يلبث أن سمع صوت أشياء تتحرك، وعرف أن عذابه أوشك أن ينتهي، وعندئذ أقدم على شيء آثار دهشته هو بالذات، فرغم تعب وجوعه، رغم أنه كان مشرفاً على الموت منذ لحظات فقد نفض الرمال عن ثيابه وأصلح من هندامه وعدل رباط رقبته وثنية بنطلونه «يجب أن أحافظ على مظهري، وإن كنت بحاجة إلى أن أحلق ذقني، ولكن لا بأس بي تذكر أنك صحفي....»

وسمع ارتطام السلم بالمقاعد واحتكاكه بالأرض فصاح:

- هل أنت متأهبة؟

- نعم.

وبالطريقة التي نطقت بها الكلمة كان من السهل أن يفهم أن الجهد الذي بذلته تجاوز طاقتها.

– هذا حسن، إنك قمت حتى الآن بأصعب جزء وبقى شيء بسيط ... ارفعي السلم من طرفه الذي من ناحيتك وادفعي الطرف الآخر كما لو أنك تريدين أن ينزلق من تحت الستارة. سيقع طرف السلم فوق الباب القلاب ويدفعه إلى أسفل... هل فهمت ما أعنيه؟ هيا... على مهل.

احتكت حافة السلم بالأرضية، وفجأة انخفض الباب وتسلل داخل الحفرة ضوء منحرف.

– توقفي الآن ... انتظري قليلاً.

وانتهز راوول فرصة الضوء الخافت واقترب من الهيكلين وتمتم: معذرة، ولكن لن يزعجكما أحد بعد اليوم.

وأهال فوقهما الرمال بملء يديه حتى غطاهما تماماً وهو يقول:

– ذلك لكي لا تراكما فارقدا في هدوء. سوف أرعاها وأهتم بها وأعدكما بذلك. إنني أعرف فيم تفكران ولكنكما مخطئان سأرعاها أبويا كصديق حميم، وسأحلها قليلاً كحبيب. سأكون منذ الآن وصيا عليها، أما الآخر فما هو إلا مغفل، وداعا.

وقالت لوسيل:

ماذا أفعل الآن؟

– حسناً. ارفعي السلم وأنزليه ببطء.

بعد ثلاث دقائق كان راوول يضع قدميه من جديد في دنيا الأحياء، ورفع السلم فانطبق الباب، وأمسك بيد لوسيل وقال:

– لنسرع بالخروج، فإننا نختنق هنا.

كانت الشمس لا تزال في الأفق، والبحر يهدر. ولم يكن هناك أحد على مرمى البصر. وقال:

– لولاك لقضي علي. ولكنني اكتشفت شيئاً هاماً والفضل لك أنت ... قولي لي... خلال الشهرين الأخيرين، ألم يداخلك إحساس بأن هناك خطراً يحلق فوقك ألم يقع شيء يثير مخاوفك؟

– كلا ... لا أرى... ولكن هناك طبعاً حادثة المركبة...

– آه...

ولكنه كان مجرد. عجلة تحطمت في أخدود وطرحت أرضاً. لو أن الجواد كان مسرعاً لكنها من الهالكين، ولكنه كان يمشي خبباً على عكس عادته.

– ومتى حدث هذا؟

– منذ ثلاثة شهور... وأنت ترى أن.

– طبعاً... لقد كان حادثاً مدبراً.... كغيره من الحوادث الأخرى، وليس صدفة أن يختفي أصحاب القصر تباعاً، وكان أبواك آخر الضحايا... تشجعي يا لوسيل.

توترت يد الفتاة على يده وتمتمت:

– إنهما هنا؟ ....

أليس كذلك؟

– نعم كان القاتل يعرف أنهما يأتيان كل سنة في الذكرى السنوية لأول لقاء لهما. وقد أعد الفخ بعناية ومهارة كبيرين ومن الذي لا يصدق أنهما غرقا... والدور الآن دورك أنت.

تعلقت لوسيل بذراع راوول وقالت:

– ولكن هذا شيء فظيع.

واستطرد راوول:

– وبعد أن يتخلص منك سيعتدي على عمك بدون شك ... دائماً بنفس الدهاء ونفس المصير حتى لا يشك أحد في الحقيقة. أنتم جميعاً

في خطر كما كنت أتوقع.

– ولكن لماذا؟ لماذا؟ نحن لم نؤذ أحداً.

فكر راوول لحظة ثم قال:

– لو أستطيع الإقامة في القصر، في جواركم، فسوف أعرف السبب سريعاً.

قالت لوسيل:

– ليتك أتيت قبل اليوم بثمانية أيام، فلعلك لا تعرف أنه يوجد بالقصر مكتبة كبيرة جداً، بل إن لها شهرة بين الأوساط الأدبية، ولقد لحق عمي بخدمته في الأسبوع الماضي سكرتير لكي ينسق ويبوب كل تلك الكتب ويضع لها فهرساً... صفوة القول سيأتي بعد أربعة أيام.

صاح راوول: ولكن هذا رائع. وهل يعرف عمك هذا الرجل هل التقيا قبل اليوم؟

– كلا، فقد تم الاتصال بينهما عن طريق نشرة في إحدى المجلات الأدبية ... كان مسيو ليونس كتارا يبحث هن وظيفة.

– هل تذكرين عنوان هذا السيد؟

– نعم، فأنا التي حررت المكاتبات ... ليونس كتارا، ١٢ شارع

باتنيول بباريس.

ومتى يجب أن يصل؟

- يوم الثلاثاء.

تأبط لوبين ذراع الفتاة وسار معها في طريق الصخور، وقال:

- حسناً. سوف أدبر طريقة للدفاع بمعاونة هذا الشاب فإنني أخمن أنه ظريف وأنه سيتعاون معنا.

لن تقع أية حوادث بعد الآن ... أعدك بذلك.

قالت لوسيل فجأة في شيء من التردد:

- ولكن من أنت بالذات؟

انفجر راوول ضاحكاً وأجاب:

- تروق كلمة «بالذات» هذه... تصوري يا عزيزتي لوسيل إنني نفسي لا أعرف من أنا. إن الصحفي رجل له مائة وجه، ولابد له من ذلك إذا أراد أن ينجح في هذه المهمة الصعبة. إنني أجيء وأروح وأنقب وأتنكر وأضيع قليلاً في كل هذه المتاهات...

ولكي أكون صريحاً معك، فإنني أشعر أنني سأتقمص جلد هذا اللويس كتارا رغما عني، لا شيء إلا لمحاكاته وللسعادة التي سأشعر

بها وأنا أقيم بجوارك.

اصطبغ وجه لوسيل بطريقة طابت لراوول وتمتمت تقول:

- أنت محظوظ ... لأنك حر... لا يجب أن تقدم حساباً لأحد عما فعلت في يومك. يخيل لي أنني لن أشعر بالمرض أبداً إذا كانت لي القدرة أنا أيضاً في أن أكون، ولكنني أنطق بحماقات.

- حماقات! أبداً أنت لم تكوني عاقلة قط كما أنت اليوم... إن الإحساس بالملل هو الذي يضنيك ويؤرقك يا عزيزتي لوسيل ولكنك لن تشعري بالملل ولا الضجر وأنا بجوارك، وأقسم لك على ذلك... فكري في مغامرة اليوم.

توقفت لوسيل عند أول منعطف للطريق والتفتت إلى الكوخ الذي أوشك أن يختفي عن الأنظار.. ووضع راوول يده في رفق كبير على عينيها وقال:

- لا يجب أن تنظري إلى الخلف أيتها العزيزة، إن أبويك يرقدان في القبر الذي كانا يتمنيانه... ثم لا يجب أن يعرف العدو أننا اكتشفنا شيئاً... هيا، تعالي. سأوصلك إلى مداخل يونرفيل.

ومضى فجأة بسيارته ووضع الدراجة بداخلها ثم أجلس لوسيل بجواره. وسألته:

هل انتابك الخوف؟

– كنت على يقين من أنك ستأتين.

– وإذا كنت لم آت؟

– أنا الذي ألقى الأسئلة... إنني لا أستجيب لها أبداً.

انطلق راوول عائداً إلى باريس، وطبقاً لعادته، كان يلتهم الطريق التهاما.. تلاشى تعبه وإرهاقه تقريباً، فبعد أن غادر لوسيل عرج على حانة وتناول شطيرة بالجبن وشطيرة بالتفاح وثلاثة فناجين من القهوة، ودب النشاط في جسمه وأحس بالسعادة.

لم يكن هناك ما يعكره غير شيء واحد هو البارون أو بالأحرى سر البارون، لأنه كان هناك خلف البارون شخص آخر يعمل، لم يكن البارون غير عميل يعمل في خدمة رجل آخر خفي خليق بأسوأ الفظائع ولكنه لا يتمتع بذكاء خارق والدليل على ذلك حوادث يونرفيل ومغالاته في العذاب الذي فرضه على جاك فيرانج وزوجته، فقد كان هذا ينم عن ذكاء غير عادي، قاس لا يرحم وصبر عجيب... صبر العنكبوت وهو يعد خيوطه الثعبان وهو يترقب فريسته وحيوانات الليل التي تضرب دون ما صوت، بمجرد أن تتخلى فريستهم عن يقظتها وحذرها. وإذا لم يحترس هو نفسه فسوف يتلقى الضربة. إن لم

يكن في شخصه هو فسوف يتلقاها بلا أدنى شط في أعز الناس لديه... في لوسيل.

وزمجر يقول بحذر العدو الخفي:

– إياك أن تلمسها... أنا، لا بأس بي، فإنني أستطيع أن أدبر أمري دائماً، أما هي... لو أصابها شيء فلن يمنعني أي شيء بعد ذلك... ودفعه غضبه الوليد إلى أن يترك العنان لسيارته فاندفعت في الطريق كحجر المنجنيق. وبلغ باريس في نحو الواحدة صباحاً ومضى إلى مسكنه ببوليفار بيرير وأسرع إلى الحمام، وبعد أن اغتسل تناول وجبة أخيرة ثم أوى إلى فراشه وهو يقول:

– ارقدي في هدوء يا عزيزتي لوسيل. إن ملاكك الحارس ليس بعيداً... سيخلد إلى الراحة بدوره، فلابد للملائكة من النوم من وقت لآخر.

***

وفي أصيل اليوم التالي، وبعد أن تناول ليونس كتارا غذاءه المتواضع، غادر المطعم المتوسط الذي يتناول فيه طعامه في العادة، وراح يفكر في حزن وهو يمسح شاربه في الوجبات المتواضعة التي لابد له أن يتناولها طوال حياته التي تخلو من البهجة.

وكان متجهماً وهو يعبر الشارع ليشتري جريدته، وسمع صريراً حاد صادراً من فرامل مضغوطة بشدة جعلت القشعريرة تجري في جسده، وتوقفت عربة فارغة أمامه وكادت أن تلمسه. وارتجف وفقد توازنه ووقع على ركبتيه، وتحامل واقفاً وهو يستند على الراديا تير الملتهب، وكان السائق قد هبط مسرعاً وعاونه على الوقوف وهو يقول:

– أنا آسف.

– تمتم كتارا:

– أنا المخطئ، فقد كنت شارد الذهن.

– معذرة... بل أنا الذي كنت مسرعاً.

– مهما يكن فلم أصب بأي شيء.

– ولكنني لست متأكداً...

– هأنت ترى لست مصاباً بأي جرح.

– هناك الجروح الداخلية، وهي أشد خطراً، تعال معي.

– أين؟

– عند طبيبي... أريد أن أطمئن تماماً.

ودفع الرجل كتارا المسكين داخل سيارته رغم احتجاجاته

الخجلة، وأبدى السائق نحوه اهتماماً شديداً ورعاية أكبر، ولكن كل هذا لم يمنعه من أن يسوق بجرأة وسرعة مما جعل السكرتير المسكين يرتجف رعباً وقلقاً، وبلغ نويلي في طرفة عين وتوقفت السيارة وهي تئن أمام احتجاجاته.

– ليس بي شيء... يؤسفني أن أتسبب في كل هذا الضرر... أنت رجل كريم جداً.

ووجد نفسه في غرفة نورها خافت وفيها أجهزة معقدة، وراح الممرض ينضو عنه ثيابه بالقوة.

وفي أثناء ذلك، دخل صاحب السيارة مكتب الطبيب ورفع نظارته عن عينيه وأخذ مقعداً وقال وهو يبتسم ابتسامة رقيقة:

– احتفظ لي به يا صديقي... ضعه في الجبس لمدة ثلاثة أسابيع... رعاية تامة وخدمة ممتازة... شمبانيا ودجاج وكل ما يريد... وكذلك كل ما لا يريد... لا ترفض له أي طلب. ولكن بما أنه فقير وبما أن فقره سيمنعه من أن يتمنى أي شيء فحاول أنت أن تتمنى مكانه.

وفتح محفظته وأخرج منها رزمتين من الأوراق المالية ألقاها فوق المكتب وهو يقول:

– هذه من أجل معدات الأشعة الجديدة ... وهذه لمريضك بعد أن

يشفى من طرف السائق الذي أصابه... سيكون من الغباء بحيث ما يتردد كثيراً، ولكنه سوف يقبل في النهاية.

ونهض ثم انحنى وأردف يقول في صوت خافت: آه كدت أنسى أهم شيء... إنه سيكتب خطاباً للسيد هوبير فيرانج بقصر يونرفيل... هذا الخطاب لا يجب أن يصل ... تذكر جيداً... قصر يونرفيل ... عليك أن تلقي به في النار.

الاختطاف

أثار الخبر الذي نشرته جريدة «أيكو دي فرانس» أكبر الاهتمام. كانت الإجازات على الأبواب والجرائد تعاني كسادًا لقلة الأخبار التي تهم الناس.

وعلى الرغم من التوتر السياسي، وعلى الرغم من الأنباء التي تقول إن ألمانيا تتسلح من جديد والتي يتناقلها الناس في كل مكان من أوربا تقريبًا، فلم يكن في استطاعة الصحفيين إرضاء قرائهم لأن الأخبار كانت عادية ولا أهمية لها، ولهذا كان امتنانهم كبيرًا نحو جاستون سيرول قبل تشييع جنازته، فنشروا مراحل حياته الغامضة وامتدحوا فضائله المتواضعة وأكدوا أن رجال البوليس سوف ينتقمون لمقتله.

وقد كتبت الجريدة تقول:

- «والمفتش جانيمار يتتبع أثرًا هامًّا وقد التقينا به في أحد الممرات

بإدارة البوليس وقال لمراسلنا ردًّا على أسئلته إنه سيكون هناك جديد بعد ثمان وأربعين ساعة، وأردف يقول بطريقة غامضة: ربما نتحدث عن رجل نسيناه بعض الشيء، ويعتقد البعض منا أنه مات، ولكنني أضعه نصب عيني ولما سأله مراسلنا إن كان يريد أن يتكلم عن أرسين لوبين، عدوه اللدود السابق، واكتفى بأن رفع إصبعًا إلى فمه وقال:

– من يدري:

وكان اهتمام الناس كبيرًا حقًّا. وقال الماكرون منهم: إن الجرائد تعمل على أن ننسى تسليح ألمانيا. وقال بعض الملمين بالأمور أكثر من غيرهم: «مسكين جانيمار، ما أن يقع على معضلة صعبة حتى يتهم لوبين». ولكن الفضوليين العاديين اهتزوا طربًا وهم يقولون:

سوف نضحك قليلًا.. وقد كانوا في حاجة إلى ذلك حقًّا. وانتقلت من فم إلى فم خلال البلد همسة كبيرة تقول:

– أرسين لوبين لم يمت.. أرسين لوبين يعود.

دعك راوول دابنيك الجريدة بين يديه وألقاها أسفل فراشه.. المفتش العام جانيمار يتتبع أثرًا هامًّا.. ماذا؟

أيكون قد اكتشف أمر البارون هكذا حالًا؟

محال. لقد اقتضى الأمر مني أنا لوبين، ربع ساعة.. وكنت أملك

عناصر لا يملكها هو.. لابد له من ستة شهور على الأقل.. هذا إن خدمه الحظ كلا، كلا. إنه ويحاول أن يجتذب الأنظار إليه.. وهذه حيلة لا تنطلي علي.

ولكنه كان مكتئب المزاج عندما دق الجرس يستدعي خادمه وكان مكتئب المزاج وهو يأكل. وعندما أشعل أحد سجائره الهولندية المصنوعة خصيصًا من أجله لم يكن قد استعاد مرحه وحيويته المعروفين عنه.. لم يكن يريد أن يدس البوليس أنفه في مشكلة يونرفيل، فقد كان كفيلًا بأن يفك رموزها وحده..

أما البارون فلا شأن له بهذه المشكلة هو الآخر، فإن الصيد صيده هو ولا يجب أن يتدخل فيه أحد غيره، ولهذا عزم على أن يكتب لجريدة ايكو دي فرانس، فإن الكلمة التي ذكرها جانيمار جرحت كبرياءه.. رجل نسيناه بعض الشيء.. آه، كيف يتكلم بهذه اللهجة.. حسنًا سوف يرى.. رجل نسيناه بعض الشيء.. ما هذه الوقاحة.. لقد حدث نفسه أكثر من مرة فقال «سأكون في القصر بجوارها، بعد ثلاثة أيام، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك».

ولكن اليوم كان رديئًا، من تلك الأيام المكفهرة التي يسوء فيها كل شيء حيث ماء الدش ساخن أكثر من اللازم، وحيث تضيع أزرار

القميص وحيث تعكس لك المرآة وجهًا تعلوه تعضات المشيب.

لبس راوول قبعة خفيفة وأخذ العصا التي يأخذها معه عندما يخرج للنزهة وخرج. سوف يجد حريته في الخارج أكثر لكي يكتب ردًّا لاذعًا للسيد جانيمار.. ويمم نحو الغاب.. والواقع أن ذلك الغبي العجوز كان على حق، فمنذ شهور والشعب محروم من تلك المقالات المرحة الطريفة التي طالما خدمت أسطورة أرسين لوبين.. وحدث راوول نفسه فقال «إنني كنت أعلن عن مغامراتي مسبقًا في الماضي وأعلق عليها.. صفوة القول، كنت ألهو ما أشاء..

ولعمري لقد كنت شابًّا.. ولكن الزمان كان يتلاءم مع ذلك.. إن الناس أكثر مرحًا يجب أن أهتدي إلى الوسيلة لتجديد إحدى هذه المغامرات التي تثير إعجاب الناس ودهشتهم.

كان غارقًا في تأملاته هذه بحيث لم يبد أي اهتمام للرجلين اللذين يسيران خلفه واللذان يقتربان منه شيئًا فشيئًا. وفجأة أحاطاه من جانبيه. وتوقف راوول وهو يقول:

آه.. ما هذا؟

وظهر أمامه رجل ثالث، وانضم إليهم رجل رابع ضغط على ظهر راوول بماسورة مسدسه قائلًا:

- لا تقاوم يا راوول دابيناك.. إنني ألقي القبض عليك باسم القانون.

تم كل هذا بسرعة مذهلة تتفق تمامًا مع مشاغل راوول بحيث إنه انفجر بالضحك وقد استعاد مرحه وقال:

- حسنًا يا جانيمار.. ولكن لماذا هذا التكشيرة البغيضة.. نعم.. أنا راوول دابنياك.. أنا هو.. أعني ذلك الشخص الذي أوشكت أن تنساه. ولكن اضحك وابتهج أيها الصديق العزيز.. إنك كسبت المعركة، ولك أن تمرح وأن يأخذك الطرب ولو مرة في حياتك.

وهزه المرح واستطرد يقول مثيرًا دهشة رجال البوليس الذين أحاطوا به.

- آه.. لن أنسى لك هذا أيها العزيز جانيمار.. تأتي هكذا خلف ظهري وتستنجد بثلاثة رجال لأنك لست مطمئنًا إلى نفسك.. وتستخدم الوسائل الكبيرة والصوت الخطير:

راوول دابنياك.. إنني ألقي القبض عليك.. وعندئذ يلتفت السيد دابنياك ويستولي عليه الخوف.. وأخيرًا ها هو دابنياك.. إنه هو نفسه لوبين. أمسكوه أنتم الآخرون.. أسرعوا وأسندوه.. ألا ترون أنه سيغمى عليه.. إنه لم يعد شابًّا كما تعرف وقد تسببت له في الكثير من

المشاكل والانفعالات.. ماذا؟ الإصغاء؟ لي أنا؟

ولكنني لا أطلب إلا أن أتبعك.. كنت أقول لنفسي بالذات يجب أن أثبت مقدرة هذا المسكين جانيمار، فسوف يعينه ذلك على الترقية.. هل تسمح لي أن أجفف عيني؟

ليس الذنب ذنبي إذا كنت أبكي لفرط الضحك.. آه.. هناك سيارة أجرة تتبعنا.. إنها تتبعنا، أليس كذلك. إن هذا الذكي جانيمار يفكر في كل شيء.. لكم أن تستمتعوا أيها السادة.. حسنًا، تفضلوا.. بعدك.. كلا هذا صحيح فأنا ضيفكم.. أيها السائق، إلى إدارة البوليس.

زمجر جانيمار:

– أيها الوغد.. سوف تتخلى عن عجرفتك هذه بعد قليل.. سوف أعلمك أنا كيف تقتل أمناء بالمكتبات.

لأنك تتصور أنني.. آه.. هذا غريب جدًّا.. ولديك دليل طبعًا.. أعني دليلًا أكيدًا قاطعًا، لا يقبل الجدل.

– ليس لدي دليل واحد.. وإنما دليلان.

عرف راوول هذين الدليلين في اليوم التالي عندما مثل أمام قاضي التحقيق فورميري.. كان قد استجم تمامًا، وعاد يشعر كأنه صغر عشر

سنوات.. ولهذا خضع للاستجواب عن طيب خاطر.. ولكنه وضح موقفه على الفور بأن قال:

– لن نتكلم عن أرسين لوبين فالمعروف أن بصماته اختفت من أرشيف البوليس القضائي منذ وقت طويل، ولهذا لا يحق لأحد أن يزعم أنني لوبين خاصة وأن المقارنة تطريني كل الإطراء.

– ولكن المفتش العام جانيمار.

– إذا أردت الحقيقة يا سيدي القاضي فإنه يخرف.. إن لوبين مات والجميع يعرفون ذلك.

– ليكن.. آه.. أريد أن أقول.. لنفرض أنك لست لوبين فإن هذا لا يمنع أنك قلت ذلك الرجل التعس.. أمين المكتبة.. فمعي، أولًا، خطاب توصية ممهور بتوقيع جابرييل تابارو ويوصي فيه براوول دابنياك لسكرتير شركة نورماندیا للتاريخ والآثار، ولست بحاجة إلى أن أقول لك إن جابرييل تابارو عضو المجمع والضابط بفرقة الشرف لم يكتب هذا الخطاب إطلاقًا.

– ولكن.

– انتظر.. وهناك أيضًا سلاح الجريمة.. عثر البوليس على مسدس القاتل بجوار الجثة وتنقصه رصاصة، وهي نفس الرصاصة التي

استخرجت من جثة جاستون سيرول.. وتقرير الخبراء في هذه الناحية أكيد ثم إن مقبض المسدس عليه بصمات واضحة.. وهي بصماتك أنت يا مسيو دابنياك.

- كيف؟

أقول لك إن بصماتك التي أخذناها أمس هي نفس البصمات التي رفعناها عن المسدس.. وهذا يعني أنك أنت القاتل دون أي نزاع.

- تراني شديد الجزع لذلك.

- عفوًا؟

- من ناحية، أنت متأكد إنني لست راوول دابنياك.

- طبعًا.

- ومن ناحية أخرى لا تترد في اتهامي بارتكاب جريمة قتل؟

- طبعًا.

- إذن فأنا لا أدري أين أنا بالذات، لأنني أقسم لك أنني لم أقتل أحدًا، فبصفتي لوبين فإن يدي ملوثتين بالدماء، ولهذا فإنني أتساءل إذا لم أكن لوبين.

- صاح القاضي:

- لا أسمح لك بالمزاح.

قال راوول متساهلًا:

مهلًا.. إنني معك في هذين الدليلين المثيرين للقلق، ولكن شيئًا من اثنين، إما أن أكون لوبين أو لا أكون لوبين..

هل أنت معي فإذا كنت لوبين فأنت تعلم طبعًا أنك لا تستطيع احتجازي في السجن.. اتفقنا؟

غدًا سأكون هربت إذن.. ولكن إذا هربت فسوف يكون ذلك دليلًا على أنني لوبين بالطبع.. ولما كان لوبين لا يقتل فسوف أثبت براءتي.. وهذا الاستدلال يبدو معقدًا بعض الشيء طبعًا، وأرى يا سيدي القاضي أنك تشعر كأنك تائه.

صاح فورميري:

- كفى.

- حسنًا.. حسنًا.. لا داعي للغضب.

- آه، ليس لدي الآن أي شك.. أنت لوبين طبعًا.

- في هذه الحالة يؤسفني أن أودعك بعد قليل.

- هذا ما سوف نراه.

– إذا بقيت في السجن فلن أكون إلا راوول دابنياك عندئذ.

كان القاضي يكاد يستشيط غضبًا في حين كان راوول يبتسم وكان الكاتب يصغي فاغرًا فمه.. وصقل راوول ثنية بنطلونه وعقد يديه على ركبتيه وقال:

– سيدي القاضي، أرجوك أن تصغي إلي.. مهما يكن فأنا هنا لمساعدة العدالة، وفي هذه اللحظة، مع هذا الإيقاف المضحك فإنك تحول بيني وبين اللحاق بالقاتل الحقيقي ومن تسليمه لك.. ليس لدي الوقت للبقاء في السجن، أفلا تريد إطلاق سراحي حقًّا؟

قال مسيو فورميري وهو يكاد يختنق:

– أعيدوه إلى السجن.

– دقيقة واحدة.. أنت تعلم تمامًا أنني اتخذت احتياطاتي يا سيدي القاضي، ولهذا يجب أن أخطرك.. إنني أعددت فراري مسبقًا، وعليك أن تفكر في الأمر إذن.

وكان الحراس قد أمسكوه من كتفيه فتخلص منهم بهزة واحدة وقال:

– إنني أختار الأستاذ هنري بورناد محاميًا لي.

بعد ساعة من ذلك، وفي زنزانته بسجن السانتيه، كان لديه كل الوقت للتفكير.. وكان لابد له من أن يعترف مرة أخرى بأن الموقف لم يكن جميلًا، فإن العدو أدار اللعبة بكل حذق وعرف كيف يستغل أقل الهفوات.. وكانت الهفوة الأولى إمساكه بالمسدس في بيت البارون، فقد كان الخادم يلبس قفازًا، وكان المقبض قد مسح تمامًا وأزيل ما كان عليه من بصمات، فهل كان الأمر مدبرًا؟

أم أنهم استغلوا الموقف فحسب؟ صفوة القول، سرقوا بصماته بطريقة ما.. كان العدو بعيد النظر، ويتصرف بدهاء كبير.. أما الهفوة الثانية فهي احتفاظه بالخطاب المهور بتوقيع تابارو بدلًا من إتلافه، ولم يكن أمام البارون إلا أن يلتقطه في الليلة التي استولى فيها على المذكرات وفتش جيوب راوول، وقد عاد بعد ذلك إلى مكان الجريمة، ولم تكن قد اكتشفت بعد، ووضع هناك الخطاب والمسدس، وبذلك تم توقيع لوبين على الجريمة، ولم يكن على البوليس إلا أن يقوم بالباقي، وهكذا غلب لوبين بأسلحته هو بالذات وأبعد عن ساحة المعركة وأصبح مضطرًا إلى اللجوء للحلول اليائسة.. وكان يتعين أن يتقدم بعد يومين إلى قصر يونرفيل متقمصًا شخصية ليونس كتارا.. وإذا تهرب الأستاذ بورنارد فسوف يضيع كل شيء.

ولكن لوبين لم يكن يمقت الإحساس بالهزيمة، فأخرج من بطاقة جاكتته ورقة وقلمًا صغيرًا أفلتا من التفتيش وبدأ يكتب خطابًا لجريدة إيكو دي فرانس:

مرة أخرى أتقلب ضجرًا وسأمًا فوق فراش من القش الرطب بالسجن أستمد من براءتي القوة لكي أعلن سخطي للملأ، فهم يتهمونني أنا، أرسين لوبين بأني قتلت ذلك المسكين جاستون سيرول وكأنني وقد طواني الموت منذ سنوات لم أعد شبحًا لا يستطيع إيذاء أحد.. ولكن المفتش العام جانيمار، في عجزه عن القبض على الجناة الحقيقيين لا يتورع عن اعتقال الأشباح، ولهذا السبب، وعلى الرغم من نفوري من استغلال امتيازاتي كشبح أراني مضطرًا لاختراق الجدران والعودة من العالم الآخر للانقضاض على القاتل وإرغامه على الاعتراف بارتكابه جريمته.. ولن أتأخر عن إطلاع الجمهور بنجاح خطتي.

عفريت أرسين لوبين

وعندما حان موعد تناول العشاء دس راوول الخطاب في يد أول حارس التقى ومعه ورقة مالية كبيرة، وأسرع الحارس فأخفى الخطاب والورقة في جيبه، وكان راوول قد استخدم هذه الطريقة في ظروف

أخرى مماثلة ولكنه في هذه المرة اعتمد على ارتشاء الرجل وربح، وكان أن ضج العالم في صباح اليوم التالي بالضحك.

كان الناس يتخاطفون الجريدة في الشارع، وراح الجميع يتخاطبون دون أن تكون بينهم سابق معرفة ويهنئون بعضهم البعض.. إنه هو حقًّا.. كانوا يشتبهون بالأمس في أنه على قيد الحياة.. سوف يغير هذا الكثير من الأمور... وتألقت العيون في انفعال يعبر بسذاجة عن فرحة الناس، فقد عاد المغامر ذو الابتسامة الساخرة، وأصبحت الحياة اليومية بما فيها من صخب وشقاء أكثر احتمالًا، فقد كان هناك رجل بعيد المنال وفائق المقدرة يضع مواهبه الفذة العديدة وذكاءه الخارق ومقدرته العجيبة في خدمة العدالة.

وعلى الفور بدأت المراهنات، في المصانع، وفي الترام وفي الحانات وحتى في الأوساط البورجوازية.. سوف يهرب.. لن يهرب.. ولم يجدوا الوقت للجدال والنقاش لأن بيانًا وجيزًا عرفوا منه في نفس المساء أن السيد راوول دابنياك، المشتبه في أنه أرسين لوبين قد اختفى من السجن بطريقة غامضة ولم تزد مدة سجنه عن ثمان وأربعين ساعة.. ووجدوا مكانه محاميه الأستاذ هنري بورنارد، فاقد الرشد وعاجزًا عن تفسير ما حدث له.

وساد الجنون والانفعال، ونسى الناس كل شيء. نسوا التوتر الدولي ومغامرات أوائل الطيارين وفضيحة كايو.

آه.. كانوا يعرفون وسائل لوبين عندما يتحدي، ومرحه الساخر وحيله العديدة وخياله الواسع الخصب، ولكن كيف تمكن من ذلك، وما هي التواطؤات التي ضمها إلى صفه في مثل هذه المدة الوجيزة، وبأية معجزة استطاع أن يتغلب على الرقابة الفعالة التي يخضع لها.. وقد شرح لوبين لي بعد ذلك بمدة طويلة، وبعد موت الأستاذ بورنارد وطريقة فراره العجيب وما زلت أسمعه وهو يقول:

«كان يتعذر علي أن أكشف الحقيقة عندئذ.. ومهما يكن فأنا كالحواة لا أحب أن أكشف عن ألاعيبي، وكان ذلك الدور من الحماقة والبساطة بحيث يحمر وجهي خجلًا وأنا أتحدث عنه».

وخيل لي أن وجهه يضطرم بالانفعال وهو يقول ذلك، مبتسمًا ابتسامته الساخرة المعروفة عنه. وانحنى نحوي بطريقة صبيانية وربت بيده على ركبتي في رفق وهو يقول:

- لا تقل لي أنك لن تفهم.. كنت قد أعددت العدة لهذا الفرار منذ وقت طويل، بدافع الحرص لا غير.. وقد حذرت ذلك القاضي المتزمت.. كنت قد أعددت فراري مسبقًا، تمامًا كما يعد المرء مبلغًا

من المال ويخبئه مسبقًا لكي يواجه به كل الاحتمالات. وأنا مضطر أن أتوقع كل شيء، حتى حماقات البوليس، ولهذا فإن الأستاذ بورنارد كان يعرف ما يتعين عليه أن يفعل بمجرد أن أطلب مساعدته.

واضطجع لوبين في مقعده إلى الوراء يضحك تلك الضحكة الساخرة الرنانة بحيث طاب لي الاستماع إليها واستطرد يقول وصوته يتهدج مرحًا:

– ما كان المسكين بورنارد ليرفض طلبًا.. ولكن هذه قصة أخرى لقد أطلق بناء على تعليماتي شاربًا كثًّا ولحية طويلة ملساء، وهي من الأدوات التي تصلح للتنكر.. ولعل ذلك كان مزعجًا ومضايقًا له ولكنه كان ضروريًّا لي وقد دخل زنزانتي في ذلك الصباح مرتديًا معطفًا واقيًا من المطر، لأن الدنيا كانت تمطر، ويرخي قبعته فوق عينيه..

وبعد نصف ساعة رأى الحراس رجلًا ينصرف له شارب ولحية ويرخي قبعته فوق عينيه ويرتدي معطفًا واقيًا من المطر، ولم يخالجهم الشك لحظة واحدة في أن ذلك الرجل هو خادمك الذي يحدثك الآن، فقد جاءه بورنارد ببعض الشعور المستعارة وهكذا نجحت الخطة.

– وهو؟

– حسنًا، قبل أن أنصرف لكمته في رفق تحت ذقنه، وكان هذا أمرًا متفقًا عليه من قبل، فما كان يجب لأحد أن يحسبه شريكًا لي، ولهذا السبب لا زال جانيمار يتساءل حتى اليوم كيف استطعت أن أتنكر.

وانصرف لوبين بعد ذلك، وكان لا بد لي من الانتظار سنوات طويلة قبل أن أراه ثانية.

***

في اليوم التالي لفرار لوبين تقدم رجل هزيل البنية ضيق الكتفين يرتدي جاكتة براقة فضفاضة ويضع على عينيه عوينات نحو الباب الحديدي لقصر يونرفيل.. وكان أشيل هو الذي فتح له وخاطبه الرجل في شيء من الخجل:

– أنا ليونس كتارا.

قال أشيل في شيء من التوتر:

– أتيت من المحطة سيرا على الأقدام؟ كان في مقدوري أن آتي لاصطحابك.. اتبعني أيها السيد.. إنهم في انتظارك في غرفة المكتبة.. أعطني حقيبتك.

ورافق السكرتير حتى القصر وتركه مع مسيو فيرانج.. وتأمل هذا الأخير الوافد الجديد في شيء من التسامح المتعجرف ثم قال:

– هل تعرف ما أنتظره منك يا مسيو كتارا؟ لا ريب أن ابنة أخي قد ذكرت لك.. هل أنت على دراية بمثل هذا العمل؟

– أظن ذلك.. نعم آه، أخيرًا، إنه ليس بالعمل الصعب.

– أريد فهرسًا أبجديًّا بأسماء المؤلفين وآخر بعناوين الكتب.

– طبعًا.. لعل ذلك. معذرة.. سوف يقتضي هذا العمل مدة طويلة.

– لا أهمية لهذا.. أنت هنا في بيتك يا مسيو كتارا..وقتي لا يسمح بأن أريك القصر لأنه لا بد لي من أن أمضي إلى المصنع، ولكن ابنة أخي سيسرها أن ترافقك.. لوسيل، هل لك أن تأتي لحظة؟

ظهرت الفتاة قادمة من الصالون، وما أن رأت السكرتير حتى بانت عليها أمارات خيبة الأمل.. وبسطت له يدا رخوة في حين قام العم بالتقديمات.

– حسنًا. سأنصرف الآن يا مسيو كتارا، وستمضي بك لوسيل إلى غرفتك.

وودعه مسيو فيرانج بتحية جافة.. وقالت لوسيل:

– تفضل، من هنا.

وتقدمته نحو الدرج، وأوشك أن يقول: لقد سبق لي أن أتيت.

وأحس بارتياح كبير وهو يصعد الدرج خلفها.. قبل ذلك ببضعة

أيام كان موجودًا في القصر يتغلب على خوفه أثناء صليل جرس الإنذار.. أما اليوم دخل القصر الكبير مدعوًّا..

كان يعبد هذه المتناقضات والمواقف المقلوبة، فقد كانت بهاء حياته الحافلة بالمغامرات، ولما كان يحب المداعبة بطبعه فقد استمتع مسبقًا بالدهشة التي ستشعر بها لوسيل عندما يعترف لها أنه ليس كتارا وإنما ريشار ديمون الصحفي، وسار خلفها وهو يتظاهر بأنه يلقي حوله بنظرات حافلة بالاحترام والإعجاب.

– هذه هي غرفتك يا مسيو كتارا.. إنها تطل على الحديقة.

– شكرًا.. إنها غرفة جميلة، وإنني أسمع العصافير.. إنني أحب العصافير.

كان يحاول أن يبدو رجلًا عاديًا لا شأن له، مضحكًا بعض الشيء.. وراق له كثيرًا أن يشعر بأنه يتسبب في قلق الفتاة لأنه لم يكن ذلك الذي كانت تنتظره وإنها كانت تظن أن ذلك الصحفي الغامض الذي يشغل ذهنها لن يأتي بعد.

– هل تريد أن تطوف بالقصر الآن، أم تؤثر أن تستريح قليلًا.

– بل أريد أن أتحدث معك.

وكانت لوسيل قد مشت نحو الباب، فتوقفت وتحولت نحو الرجل الهزيل الذي تغير صوته فجأة، وبدت الجاكيت الفضفاضة أنيقة عليه.. خلع عويناته ومضت عيناه خبثًا وانحنى أمام الفتاة وهو يكنس الأرض بقبعة خيالية ويقول:

- ريشارد ديمون في خدمتك.

ذهلت الفتاة ولم تدر ماذا تقول أو ماذا تفعل. هل يجب أن تضحك أو أن تغضب.. وعقدت يديها على صدرها وراحت تتأمل في فزع ذلك الوافد الجديد الذي ظهر هكذا فجأة ردًّا على ندائها الصامت كما يظهر الأمير في إحدى قصص الحوريات. وقال الصحفي:

- آه، حسنًا.. ألم أعدك بأنني سأعود.

بدا لي أنه أدعى إلى الحرص أن أتقمص شخصية عادية، فإن أعداءنا يسهرون، وثقي بما أقول.. ولكن من ذا الذي يمكن أن يشتبه في كتارا؟

- هل تتنكر كثيرًا يا مسيو ديمون.

- كثير جدًّا، لدواعي مهنتي، واجرؤ فأقول إنني أفلح في هذه المهنة.. وسوف ترين.

وفي لمح البصر بدا أنه ينكمش وخبت نظرته تحت عويناته وتهدلت الجاكيت عند كتفيه كما لو كانت قد بليت وصم صوته وعاد إلى ثأثأته.

وترددد وهو يقول:

– هل أبدو.. إذا أردت أن تسمحي وتقبلي الوصف، هل أبدو كأنني شخص أخرق.

صفقت لوسيل بيديها وصاحت كطفلة في المسرح:

– مرة أخرى!

قال ريشارد ديمون: كلا.. أنسيت أنني هنا لعمل خاص.. كفى هزلًا.

– ولكن أين وضعت ليونس كتارا الحقيقي.

– صه.. في النفتالين.. اعلمي يا لوسيل أنه لا يجب استجوابي أبدًا.. ولك أن تطمئني من ناحيته.

– وهل تعرف كيف تؤدى عمله؟

– ولكنه من أبسط الأعمال.. وقد سبق لي أن أديت أعمالا أكثر صعوبة.. كان يبتسم.. كان سعيدًا بصورة غير معقولة.. صوت صغير كان يعرفه جيدا كان ينفخ في أذنه ويقول:

– يا لك من ممثل! ألا تخجل من القيام بدور ما مع هذه الطفلة التي

تبدى نحوك كل هذا الإعجاب؟ ما الذي يمنعك من أن تمشي على يديك في نفس الوقت وأن تسير بقدميك على الجدران؟.. وكان يرد على نفسه فيقول:

– لن تتجاوز الأمور أكثر من هذا، وإني أقسم على ذلك.. ولكن يجب أن تفهم أن الفتاه المسكينة كانت مريضة.. تعانى من الوحدة وإنني في هذه اللحظة أرد لها صحتها وأعيد إليها الابتسامة وحب الحياة.. ثم إنك تضايقني.

قالت لوسيل: سأريك القصر الآن.

– لا تزعجي نفسك بمرافقتي.. وأرجو المعذرة.. إنني أوثر أن أكون بمفردي وأنا أطوف بالقصر.. وبهذه المناسبة ماذا من أمر برنار دان؟ أجابت لوسيل: إنه لم يعد بعد، وقد بدأ القلق يساورنا من أجله.. إذا طال غيابه فسوف يبلغ عمى البوليس، فلعل شيئا قد وقع له..

إنني أعلم تمامًا أنه اعتاد أن يمضى ويأتي كما يريد.. لقد كان يعتز دائما بحريته.

– وهذا هو السبب بالذات.. وسوف يتملكه الغضب جدًّا إذا نحن أطلقنا الشرطة خلفه.. صدقيني.. من الأوفق الانتظار قليلا استعملي نفوذك مع مسيو فيرانج، وسأرى من ناحيتي إن كنت أستطيع أن أفعل

شيئا..

آه.. كلمة أخرى.. عامليني دائمًا بتحفظ أمام الآخرين، وهذا أمر يسير طبعًا فأنا لا أعتبر شيئا بالنسبة لك.. لست هنا إلا مجرد شبح.. وخيال.. لنفترق الآن.

ومضى إلى غرفة المكتبة وراح يتأمل في حزن وأسى جدرانها التي تغطيها الكتب.. كان أربعة عشر أو خمسة عشر ألف كتاب على الأقل، وعليه أن يقضى الأسابيع الطويلة في تدوين بطاقات لها.. ولكنه لن يفعل ذلك طبعًا فإن أمامه عملا أفضل ولكن ماذا؟..

لم يكن يدرى عم يجب أن يبحث فلكي يصل إلى نتيجة فعالة لابد أن يكون برناردان تحت يده هو والمذكرات.. أما البارون فسوف يظهر إن عاجلا وإن آجلا، وعندئذ مضى راوول إلى المعرض ودهش على الفور لسعته وتناسقه.. كان عبارة عن قاعة كبيرة ينيرها عدد من النوافذ المرتفعة تطل كلها على فناء القصر، وثمة أمور غريبة..

كان هناك في آخر القاعة جزء مسطح مرتفع أشبه بخشبة المسرح ولعله كان مخصصا فيما سبق للموسيقيين، عندما كان صاحب القصر يقيم الحفلات الراقصة.

وكانت مجموعة اللوحات رائعة يقف المتأمل أمامها طويلًا.. وكان

راوول قد سبق أن رأى أجمل اللوحات على ضوء مصباحه الكهربي ولكنه كان يقف الآن أمام مجموعة نفسية لا تقارن بغيرها من اللوحات وتستحق عن جدارة تركيب جرس الإنذار ووجود المسدس..

وتملكه العجب وتقدم في بطء وهو يحاول أن يكتم وقع خطواته فوق بلاط القاعة المرمري ذي اللونين الأبيض والأسود المتعاقبين والذي بدا كرقعه الشطرنج.. كانت لوحات كثيرة، لرهبان وقساوسة متشابكي الأيدي وبعض رجال البلاط وهم يمتشقون سيوفهم وبجوارهم قضاة يبدو التردد في عيونهم بين غيرهم من أصحاب الوجوه المتأملة والصارمة.. كان يبدو أنهم يضيفون إلى صمت المكان سمة عامة من الاستياء..

وكانت هناك لحسن الحظ سجادة كبيرة يدل مظهرها على أنها تلقى عناية وصيانة كبيرتين، كانت تقطع رتابة تلك الوجوه الصارمة، نسجت بتلك البسمات المزرقة التي تميزت بها المدرسة الفرنسية وتمثل بلاط الملك فرانسوا الأول، وفي بدايتها رقعة شطرنج والملك واقف يبسط يده لكي يمسك بيدقا في حين كان خصمه غارقًا في التفكير.. وكان الرسم في منتهى الدقة،وعند قدمي الملك تكوم تريبوليه وراح يداعب كلبا سلوقيا في حين بدا النبلاء يتمشون حولهم وهم يبسطون

أيديهم لسيدات يرتدين ثيابا براقة.

وكانت ثنية الثياب تبدو ثقيلة بعض الشيء وتدل على أذواق فجة ويكاد أسلوب النهضة ينفلت بالكاد من أسلوب القرون الوسطي.. ولكن كان هذا المزيج المتوتر والطبيعي في الوقت ينم عن شاعرية نادرة.

تراجع راوول قليلا لكي يتأمل بطريقة أفضل ذلك المزيج العجيب ثم انتقل إعجابه إلي انسجام الألوان وترافقها العجيب.. كانت قطعة فنية رائعة لو أنه رآها في وقت آخر لظلت تلح عليه ليال طويلة.. وأفلتت من صدره زفرة وابتعد قليلا لكي يقف أمام لوحة للقديس جان بابتست.. جهد كبير بدون فائدة.. وبجوارها فارس جالس في حانة يعب الشراب في صخب من زميلين.. كانت اللوحة مملوءة حركة ولكن راوول لم يكن يحب اللوحات ذات الأبعاد الطويلة والأعمال الطموحة أكثر مما يجب.. كان يفضل اللوحات الصغيرة كلوحة يعقوب الذي ينازل الملاك.

– رباه!.. القديس جان.. ويعقوب.. ودار تنيان!

عادت كلمات الأب برنار دان إلى ذهنه فجأة.. هل هذا ممكن؟ القديس جان بعد يعقوب.. ولحظ راوول عندئذ أن المكان حول

اللوحة التي تمثل القديس جان أفتح من غيره فارتد إلي الخلف.. لم يكن هناك أي شك.. كانت في ذلك المكان لوحة أخرى تغطي مساحة أكبر.. وأطبق عينيه.. كم من مرة تجلت له الحقيقة فجأة وفي وضوح تام!

وأحس بأن الحقيقة تتكشف أمامه في هذه اللحظة بالذات، وإنما ستنقض عليه كما ينقض الوحي على الفنان،وكل ما عليه هو أن يبقى مكانه وألا يتحرك وأن يتحرك وأن يترك لذهنه العنان لكي يهتدي إلى السر الغامض الذي يحاول أن يتبدى له.

القديس جان يخلف يعقوب.. القديس جان يخلف يعقوب.. حسنا، وبعد آه، أظن أنني فهمت.

وأنزل اللوحتين من مكانهما وعلق لوحة يعقوب مكان لوحة القديس جان.. وغطت اللوحة الأخيرة الجزء الفاتح من الحائط تمامًا وهكذا كانت لوحة يعقوب هي التي كانت تشتغل هذا المكان فيما سبق، وقد خلفتها لوحة القديس جان. وإن؟ والفارس؟

دار تنيان.. ما دوره في كل هذا؟

انطفأ الوميض السريع الذي تألق فجأة وسط الظلمات وتوترت كل أعصابه وراح يفكر.. كان هذا غباء كبيرا.. أن يلمس بأصابعه شيئا

على جانب كبير من الأهمية ثم يعود فيتخبط من جديد.

وفجأة عرف بغريزته أنه ليس وحدة فرفع عينه في غير مبالاة إلى فترينة تضم مجموعة من النياشين ولكنه لم يحفل بالميداليات والمجوهرات والنياشين.. وعكست مرآة الفترينة قاعة المعرض.. واكتشف خلفه، بجوار المدخل طفلة صغيرة عرفها على الفور.. فليري.. حفيدة برنار دان.. وإذا كانت الطفلة قد داخلها الخوف من ريشار ديمون فإنها لم تشعر بأي خوف من ليونس كتارا، لأن هذا الأخير يمت إلى عالمها ولأنه كان خجولا مثلها، ولعله بحاجة إليها. لأنه خيل لها أنه تائه قليلا في هذا المعرض الكبير..

وتحول راوول في بطء وقال:

- فاليرى.

واتخذ صوته أشد اللهجات إقناعًا، وجاءت إليه باسطة يدها.

- صباح الخير يا فاليرى.. أترين؟

إنني أتفرج في نفس الوقت.. ليست لدى كراسة جميلة مثلك، ولكنني أسجل أشياء في رأسي.. هل لك أن تريني؟

كانت تحمل تحت ذراعها الأيسر كراسة من مائة صفحة، زرقاء.

وقد كتبت على غلافها اسمها بعناية كبيرة (فاليرى فوتيرى) وكانت تضم مواضيع إنشاء ومسائل حساب وملخصات..

– أراهن أنك تلميذة مجتهدة.

أجابت الطفلة في سذاجة: نعم.

– وأنك تذاكرين دروسك جيدا.. وأن لك ذاكرة قوية.

– أوه، نعم.

– أنتحقق من ذلك أنت.. انظري حولك.. هل انتقل شيء من مكانه؟ ركزت الطفلة، وبدا عليها الجد والاهتمام فجأة في إرادتها لكي تعطى لهذا السيد الظروف انطباعا حسنا عنها.. وأجابت:

– كلا.. كل شيء كما هو.

– هل يأتي جدك إلى هذه القاعة كثيرًا؟

– نعم.

– وهل يقترب من الفترينات.. واللوحات.

– نعم.. فهو الذي يعنى بها وينظفها.

– ثم؟ ماذا يفعل غير ذلك؟

ترددت لحظة وقد احمر لونها وخفتت من صوتها وهي تقول:

- إنه يمشى فوق السطح في بعض الأحيان.

- إيه يمشى فوق السطح.. هل أنت واثقة؟

- نعم.. وهو يمشى على أربع.

ونظرت إلى راوول خفية وهى تخشى أن تكون قد كشفت عن شيء يمكن أن يعطيه فكرة سيئة عن جدها، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت عندما رأت أن السيد قابل اعترافها هذا باهتمام كبير.

- ومتى يمشى فوق السطح؟

- في الليل.. صحوت مرة ورأيته، وقد ساءه ذلك وأوشك أن يضربني.

- فاليرى..

كان الصوت صوت لوسيل، ووقفت الطفلة على الفور بعتبة المعرض.

- آه.. أأنت هنا يا فاليرى.. ألا يمكنك أن تردى على عندما أناديك.. معذرة يا مسيو كتارا.. إنها فضولية كالقطة.. إنني أبحث عنها لكي أجبرها على العمل قليلا

وكانت قد اقتربت وأردفت تقول في صوت خافت:

– جدها هو الذي يهتم بها عادة ولكن يجب أن أحل محله طبعًا.
وضع أمين المكتبة المزعوم يده على رأس فاليرى وقال:
– هل أنت راضية عنها؟
– نعم.. إنها طفلة رزينة جدًّا.
– فلنمنحها اليوم عطلة إذا سمحت.
– وربت على خد الطفلة وقال:
– امضي والعبي يا فاليرى. ولندع الأعمال الجادة إلى الغد.
– شكرًا يا سيدي.
وانطلقت وهي تعدو.
وقال راوول وهو يستعيد صوت ريشا ديمون: لعلك تتساءلين لماذا؟ ذلك لأنني بحاجة إلى أن أوحي بالثقة لهذه الطفلة. فهي تعرف أشياء
– أية أشياء.
لا أدري.. ولكنني سأسألها شيئًا فشيئًا.. لا تنسى أنها كانت تتبع جدها في كل مكان وأنها كانت تسمعه يتكلم.. هل يحزنها غيابه؟
– لا أظن، فهي كتومة جدًّا وقد رباها برنار دان في خشونة.. وقد قلنا لها إنه سافر لقضاء عمل، ولعمري سرها ذلك.

قال ديمون: هل تريدين أن تريني البستان؟ إن لدينا الوقت.. ويجب أن يبقى خادمك، ذلك الغز الساذج الذي أقبل من باريس والذي يطوفون به أرجاء البيت.

ومشى خلف لوسيل بخطوتين في احترام واستحياء وهو منحنى الظهر قليلًا، وفى وضع ذلك حقا.. وطاف بالدور الأرضي للقصر ومر أمام المطبخ حيث تعمل أبولين وخرج إلى البستان، وعرف وهو في طريقه الباب الصغير الذي خرج منه البارون وشركاؤه في الليلة التي اختطفوا فيها برنار دان.. وإذا أصبح بعيدا عن المقيمين بالقصر

اعتدل في وقفته وسار بجوار لوسيل، وقال:

– لهذه النزهة غرض آخر، هناك ما يحملني على الظن بأنكم جميعا مراقبون.. لا تسأليني من.. فمازال الوقت مبكرا لكي أرد عليك.. ولهذا يجب أن أعرف عن ظهر قلب تفاصيل القصر والبستان وكل ما يحيط بهما، لأنني واثق أن المعركة الحاسمة ستدور هنا..كلا..

– لا تخافي.. لن يقع لك شيء.. اسمعي، هذا باب آخر..فأين يؤدي؟

– لا يؤدى إلى أي مكان إنما هناك درب من الناحية الأخرى يتصل بالحقول.. كان هذا الباب فيما سبق يؤدى إلى مقبرة صغيرة ملحقة

بالقصر وبعد الثورة أصبحت هذه المقبرة عامة، وهدموا جدرانها، وقد ضمت الآن إلى مقبرة يونرفيل.

فتح راوول الباب، وما كاد يفعل حتى رأى شبحا يختفي في زاوية الجدار ولكنه لبث جامدا لا يتحرك حتى لا يخيف لوسيل.. ولم تكن لحظت شيئا:

جميع آل يونرفيل في هذه المقبرة.. هل تريد أن تلقي نظرة؟ إن المدخل قريب من هنا.

واجتازا الدرب وانعطفا إلى اليسار فإذا بهما في الطريق القادم من البلدة والمؤدى إلى الباب العمومي للمقبرة.. وكان راوول يردد البصر حوله لعل الرجل لا يزال يحوم في المكان.. وهو بكل تأكيد أحد خدم البارون.. ومشت لوسيل في ممر طويل تحفه الأشجار ثم انعطفت إلى طريق ثانوي أفضى بها إلى صف من القبور القديمة..

وكان راوول يفحص الأنحاء في حذر بين وكان الصمت المطبق يثقل على الصخور والصلبان وباقات الزهور الذابلة.. وقرأ وهو شارد الذهن الكلمات المحفورة فوق الشاهد الرخامي.

هكتور يونرفيل

١٧٧٢-١٨٥١م

كان كريمًا نحو الفقراء صلوا من أجله

هكتور يونرفيل، صاحب القصة الذي تحدث الأستاذ فرينيزو عنه.. وعاد الحديث إلى ذهن راوول.. فرار لويس فيليب وعودته إلى يونرفيل.. ورأى فجأة، على مقربة من القبر شاهدا آخر أكثر تواضعا وعليه الكلمات التالية:

ايفاريست فوتيريل

١٨١٦-١٩٠١م

ماذا؟ فوتيريل؟ لقب أهل فاليرى.. أفاريسي فوتيريل، الخادم الوفي المخلص الذي تكلم عنه موثق العقود.. إذن فإن فاليرى هي الوريثة المباشرة لوكيل الكونت يونرفيل الشاب.. أيفريست الذي رافق الملك إلي ترفيل..

وإذن.. فان الشيخ برنار دان. وأمسك راوول بذراع لوسيل والها قائلًا:

- قولي لي.. برنار دان؟

أيمت بصلة القربى لإيفاريست وتيريل؟

- إنه ابنه.

ومن جديد، أحس راوول بذلك الانبهار الذي ومض في ذهنه في المعرض.. ومرة أخرى خبا الوميض واكتنفه الظلام، طبعًا.. كانت العلاقة واضحة بين السر الغامض وبين فوتيريل.. ولكن ما هو هذا السر؟

وأردفت لوسيل تقول: لقد عاش برنار دان في القصر طوال حياته.. لعب فيه وهو طفل، تمامًا كما تفعل فاليرى الآن، وإنني لأتسأل إذا لم يكن هو صاحب القصر الحقيقي.. لقد اختفي آل يونرفيل ولكن آل فرتيريل مازالوا باقين.

قال راوول في حدة:

- كرري.. أعيدي هذا القول.

نظرت لوسيل إليه مشدوهة وقالت:

ولكن هذا صحيح.. لقد مات آل يونرفيل، ولكن آن فوتيريل يتعقبون، أبا عن جد وابنا عن أب. تمتم راوول:

- آه.. هو ذلك.. هو ذلك حقًّا.

وفجأة، وبذهنه المتوقد العجيب الذي يجعله يثبت إلي النتائج

المنطقية دون أن يتوقف في المراحل المتوسطة عرف أن فاليرى تتعرض للخطر بدورها هي الأخرى وأن الأشقياء الذين لم يكن هناك شك في أنهم لم ينالوا بغيتهم من الرجل العجوز لا يسعهم الآن إلا أن يحاولوا اختطاف فاليرى.. وتذكر الشبح الذي سارع بالهرب عند زاوية الجدار وتمتم ويقول:

- كلا.. لن أغفر لنفسي أبدا.

سألته لوسيل وقد ارتبكت إزاء القلق الذي رأته على وجه زميلها:

- ما الخبر؟

ولكن راوول أمسكها من يدها وجرها نحو الباب.. وفتشت عيناه الممرات وحواسه لها متوقدة تسجل أقل صوت.. طبعًا.. إذا كان البارون موجودا ولعله كان قريبا جدًّا.. لم يخمن طبعًا من الذي يختفي تحت مظهر هذا الموظف الجديد الذي تدل هيئته على أنه غير خطر، ولن يحاول أحد الاعتداء على ليونس كتارا..

ولكن لا ريب أن رجاله قد أخبروه بلا ريب أن لوسيل التي لا تخرج إلا فيما ندر.. كانت في هذه اللحظة بعيدة عن البستان.

وراح راوول يجرى تقريبًا.. وكانت الفتاة تجد صعوبة كبيرة في اتباعه، وكان الباب الصغير لا يزال مفتوحا.. وسألها راوول:

– هل بقي برنار دان في القصر؟

– كلا.. إنه يسكن الكوخ الصغير الذي تراه هناك، على اليسار.. ولكن دعني، فإنني أظن أنني سأقع.

أطلقها راوول وراح يجري.. واجتاز فناء الشرفة وهو في عجلة من أمره، والتقي بأبولين: هل رأيت فاليرى؟

– كانت هنا منذ خمس دقائق. . كانت تلعب أمام الباب، ولا ريب أنها عادت إلى الداخل.

ولكنه لم يكن مصغيًا إليها، فقد أسرع إلى الكوخ في خطوات سريعة وهو يصيح:

– فاليرى. . ردى على.. فاليرى.

وفتح الباب ووقف ريثما يسترد أنفاسه، ولكنه كان قد عرف.

– فاليرى.

ودخل وفتش المطبخ وغرفة الطعام والغرفتين الأخريين على عجل.. اختفت فاليرى.. لم يكن بالكوخ أى مكان يمكن أن تختبئ فيه.. لقد اختطفت تحت أنفه وبصره وعزم وسرعة يدلان على جرأة غريمه ووقاحته.. وفكر راوول.. ومع ذلك فقد داخلني الشك،

ولكن الشك لم يكن كافيًا.. آه يا للوغد؟

إنه جدير بأن يعذبها هي الأخرى.. وانغرزت أظافره في راحتيه.. ودار حول نفسه حائرًا محاولًا تجنب الخطر، وقد أحس بالذلة لأنه أخذ على غرة.. وتملكه الحزن بحيث تشنج حلقه.. هذه الصغيرة فاليرى .. الآمنة والجذابة بضفيرتيها الجميلتين وكراستها التي تمسكها بكل تلك الرقة مسألة الحساب.. قطاران.. وزمجر يقول:

– آه، لسوف أقتله.

وجاءت لوسيل وهى تلهث وقالت:

–حسنًا.. عم تبحث؟

تمالك راوول نفسه على الفور وقال:

– فاليرى اختفت.

شحب وجه لوسيل بشدة، وأسرع راوول يساندها قائلًا:

– لوسيل، في مقدورك أن تساعديني.. لم يفت الأوان بعد.. إنها لم تذهب بعيدًا بالتأكيد.. فلنبحث.. لا ريب هناك دليل ما.. فلنفتش بهدوء.. ولنبدأ بالمطبخ.

أطاعته لوسيل ورافقته إلى المطبخ، وبدأت ترفع المقاعد، ولكنه

أسرع يقول:

– كلا.. ليس هكذا.. البحث معناه النظر لكي نرى إن لم يكن قد نقل شيء من مكانه.. إن الأشياء تتكلم.

وراح يتقدم ويتراجع كما يفعل الرسام أمام اللوحة.. كان يحس بكل صغيرة، ولم تجرؤ لوسيل على أن تتحرك.. وهتف فجأة:

– آه.. ما هذا؟

وانحنى والتقط قصاصة الورق من جانب الساعة الكبيرة، وبسطها وصقلها بيده.. واقتربت لوسيل وقرأت معه:

«هاتي معك بالخطاب المخبوء خلف غلاف التوراة.. أنا في انتظارك أمام الكنيسة بالغابة.. جدك».

أدرك راوول أنهم أرادوا ألا يستخدموا القوة مع الطفلة، فقد خافوا أن تصرخ وتستنجد ولهذا أعطوها هذه الورقة واستمالوها إلى الفخ ..وهذا أفضل وأسلم.. التوراة.. لا ريب أنها في غرفة برناردان.

وعبر غرفة الطعام.. كانت التوراة فوق الطاولة بجوار الفراش، وكانت عبارة عن كتاب ضخم مجلد بالجلد، وفي الغلاف من الداخل، تجويف رقيق كان من السهل إخفاء ورقة فيه.. ولكن المخبأ كان فارغًا.

وهكذا سجل البارون انتصارًا حاسمًا بعودته إلى الهجوم، فقد اضطر الشيخ برناردان، في المحجر، تحت لسعة النيران إلى أن يكشف لجلاديه وجود التوراة والسر الذي تضمه.. كان هذا السر لا يزال موجودًا قبل هذا بخمس دقائق.. ونظر راوول إلى ساعته.. خمس دقائق.. وما هي الدقائق الخمس؟

إنه يستطيع أن يلحق بهم بالسيارة بكل سهولة.. آه.. لماذا دفعه الحرص إلى أن يحمل ليونس كتارا على القدوم بالقطار؟

حاول أن يتظاهر بأنه واثق من نفسه وبأنه سيد الموقف ولكنه كان يسمع في داخله نبضات التوتر التي تدق دون رحمة أو هوادة.

– لوسيل.. ماذا يوجد هنا من وسائل المواصلات؟

– سيارة عمي.. ولكنه انطلق بها.

– وغيرها؟ ألا يوجد شيء آخر؟

– بلى.. دراجتي.. وموتوسيكل أو بالأحرى سيد كار، كان أبي يستخدمه في تنقلاته للرسم.

– وأين هو؟

–في الجاراج.. ولكننا لم نستخدمه منذ وقت طويل.

– سوف أستخدمه أنا.. أصغي إلى جيدًا يا لوسيل..أثناء غيابي.. أوه لن يكون ذلك طويلًا.. سوف تنسين كل ما حدث، وسوف تخرجين وتقرئين وتقطفين الزهور، ولكن عليك ألا تفكري في أي شيء.. هل تسمعين؟ ومن ناحيتي أنا، سوف أعيد إليك الصغيرة. اتفقنا؟

كانت تنبعث من هذا الراجل قوة وسكينة بحيث إن الفتاة ابتسمت وقد شعرت بالاطمئنان.

وأمسكها راوول من كتفيها ونظر إليها مليا ثم قال: سوف تكون هنا الليلة.

ثم أسرع إلى الجاراج، وهناك بارك أشيل لأنه كخادم أمين اعتني كل العناية بالسيد كار بحيث وجده راوول في حالة صالحة، ولكن المخزن كان فارغًا، ولحسن الحظ كانت بالجاراج بضع صفائح من البنزين فملأ الخزان بكل دقة رغم الدقائق التي تمر ثم دفع السيد كار إلى الخارج وأدار المحرك وجلس أمام عجلة القيادة.. وضغط على الفرامل عندما بلغ المكان الذي تقف به لوسيل، وكانت تنظر إلى كل ما يفعل في شيء من الذعر.

– تلك الكنيسة التي في الغابة.. هل هي بعيدة؟

– كلا.. بعد أربعمائة متر.. انطلق إلى اليمين، بعد البستان وانطلق

منتزعًا بعض الحصى.. ورأى جدران الكنيسة التي يكسوها اللبلاب ووضع قدمًا على الأرض وتقدم محاذيًا حافة الطريق وهو يفحص الغبار الكثيف في هذا الفصل من السنة، ولم يستغرق فحصه أكثر من بضع لحظات، لأنه لم يلبث أن رأى الآثار، وعرفها دون مشقة.. عجلات سيارة من طراز دنلوب..

وقد عرفها بسهولة بسبب أضلاعها المميزة.. وكانت هناك بركة صغيرة من الزيت في المكان الذي توقفت فيه سيارة المختطفين ورأى راوول ما حدث وفى وضوح كما لو كان يرى فيلما سينمائيًّا الطفلة الصغيرة تجرى وهى بالغة الانفعال «أين جدي».. إنه هنا، وهو في انتظارك.. وتتقدم في غير حذر ولكن يدًا تكمم فمها وذراعًا تحملها وتنطلق السيارة. وتمتم يقول:

- يا للأوغاد!

وألقى نظرة إلى ساعته.. كان التأخير الآن قد بلغ ربع ساعة وعاد للانطلاق وهو يفحص الأرض من وقت لآخر متابعًا آثار الدنلوب بين غيرها من الآثار.. ولحسن الحظ كانت السيارات قليلة في هذه الناحية النائية من نورمانديا..

وعندما بلغ بون أوديار أبلغ فلاح أن سيارة سوداء مرت قبل ذلك

بقليل وانعطفت إلى طريق روجمونتييه.

– هل كانت مسرعة.

– ليس كثيرًا.. لا ريب أن ركابها باريسيون لأنه واضح أنهم لا يعرفون الطريق جيدًا.

قال راوول محدثا نفسه:

– آه.. إنهم لا يريدون لفت الأنظار إليهم.

وضاعف من سرعته.. وزمجر المحرك كأنه يشكو من الإعياء.. وانعطف في طريق روجمنتييه، ولم يلبث أن رأى الآثـار في أحد المنعطفات ، فقد حادت السيارة عن طريق ووطأت الأعشاب وراح راوول يسابق الريح وقد تشعث شعره واحمرت عيناه من الغبار وأخذ يتطلع إلى الطريق الذي أمامه محاولًا أن يتحاشى الحفر والأخاديد، ضاغطًا بركبتيه على خزان الوقود تجنبًا للوقوع.. ورأى عن بعد جرس كنيسة لابوي.

يا للعنة! كان هناك حشد متجمهر من الناس في وسط الطريق. حول عربة نقل سقط جوادها بين العريش.. وأبطأ سيره ودار بالحشد ورأى وهو يدور عيني الجواد البيضاويين ووجه صاحب العربة الشاحب.. وصعد فوق الطوار وتوقف بجوار غلام سأله قائلا:

– هل رأيت سيارة تمر من هنا منذ ربع ساعة؟

– سوداء؟

– نعم.

– والستائر مسدلة؟

– نعم.

– ليس من ربع ساعة يا سيدي.. بل لا أكثر من أربع أو خمس دقائق.. لأنها اضطرت أن تتوقف.

دهش الغلام حين أعطاه راوول قطعة نقدية من ذات الخمسة فرنكات، وراح يتابع بعينيه ذلك الرجل النصف مجنون والذي تدمع عيناه وينطلق بالموتوسيكل بهذه السرعة المذهلة.. وكان راوول قد انعطف إلى الطريق المؤدى إلى نهر السين.. وفجأة رأى السيارة وهى تتقدم في حذر بسبب المنعطفات الكثيرة.

– آه.. إنها لي الآن.

واندفع نحوها كما يندفع الصقر نحو فريسته.. وكانت نيته أن يسبقها ولو اقتضى ذلك منه القيام ببضع حركات بهلوانية وأن يقف في عرض الطريق، ولكن لا ريب أن ركابها فطنوا إليه لأن السيارة

أسرعت، وظهر ذراع من النافذة وقذيفة صغيرة من الدخان.. ولم يسمع راوول الطفلة ولكنه خمن صفيرها وانحنى فوق عجلة القيادة وأبطأ وراح يمشي في خط متعرج.

وأفرغ الرجل مسدسه كيفا اتفق، ثم اختفي الذراع، وانطلقت السيارة وقد ضاعفت من سرعتها.. واستشعر راوول فجأة ما سوف يقع فضغط على الفرامل في قوة وانطلق بانحراف بين جانبي الطريق في حين صعدت السيارة الثقيلة ممرا جانبيا واصطدمت بشجرة فقدت توازنها تمامًا وهوت في النهر، وعلى حافة الساحل.

وتناثر الماء وتطايرت رشاشات منه على وجه راوول الذي كان قد انحني فوق الشاطئ وبدأ يخلع سترته.. وامتدت في وسط النهر دوامة كبيرة بيضاء في نفس الوقت الذي طفت فيه على سطح الماء رأس ثم أخرى.. وألقى بنفسه في الماء وراح يسبح في قوة نحو فاليرى، وكانت توشك أن تغرق، وأمسكها في اللحظة التي همت فيها بأن تختفي.. أما الغريق الآخر فقد أسرع نحو الشاطئ دون أن يهتم بفريسته.. وصاح به راوول: سوف نلتقي.

وشرب جرعة كبيرة من الماء وغطس.. وحمله التيار إلى شاطئ صغير، وانصاع له وهو يحمل فاليري، ولم تكن قد فقدت الرشد..

ولحسن الحظ كان الطقس حارًّا في ذلك الوقت من شهر يونيه، مما جعل الحمام الاضطراري أقل خطرًا، ووضع قدميه على الشاطئ دون صعوبة، ورأى منحدرًا أفضى به إلى طريق غير بعيد عن الموتوسيكل.. وكانت فاليري قد أحاطت بذراعيها الرقيقتين عنق ذلك الرجل الغريب الذي رأته موظفا خجولا متواضعا والذي يضعها الآن في رفق في السيد كار الذي طالما تحدث عنه أشيل بكل سخرية.

– سوف أجففك يا صغيرتي ثم أعيدك إلى البيت.

ولم تعرف الصوت هو الآخر ولكنها أحست بالاطمئنان وتكومت في مكانها وقد غلبها النعاس رغم البرد.. لعل الأب نوبل، عندما كان شابًّا كان يشبه هذا الرجل الغريب الأطوال الذي يدير محرك السيد كار الآن.. وكانت غارقة في النوم عندما توقف راوول في فناء إحدى المزارع، وقال إنه تعرض لحادث غير خطير، ولم تسمع الطفلة المزارعة وهى تترفق بها وتلفها في غطاء دافئ وتشعل النار.. وشربت قليلا من اللبن الساخن دون أن تفتح عينيها.. ولم يكن يشغلها غير فكرة واحدة كشعلة صغيرة من الفرح: أنا الآن آمنة.. إنني الآن في أمان.

ولم تستيقظ تمامًا إلا في طريق العودة.. وكان زميلها منطلقًا بسرعة عادية.. وأحست بالراحة والهدوء بعد القلق الذي سيطر عليها أثناء

سباق السيارة الرهيب.

وسألها راوول:

– هل أنت على ما يرام يا صغيرتي؟

ابتسمت من غير أن ترد، ولكنها مدت يدها إليه فضمها في حنو كبير وهو يقول:

– هل قطعوا لسانك؟

– أوه، كلا يا سيدي.

– كم رجلًا كان معك.

– ثلاثة.

يا للشيطان! سوف تخرج جماعة البارون من المغامرة حتمًا.

– ماذا قالوا لك؟

– إنهم سيمضون بي إلى جدي.

– والخطاب الذي أخذته من التوراة.

– أخذوه منى.

– هل قرأته؟

– كلا.. ولكن جدي كان يقرأه من وقت لآخر أثناء الليل ويبكي.

- وما شكله؟

ترددت الطفلة، فإنه يسألها الآن شيئًا صعبًا جدًّا.. وعاد راوول يسأل:

- هل كان قديما؟

- نعم.. كان هذا يبدو ثنياته.. وكذلك المظروف.. كان مصفرًا.

- آه.. كان هناك مظروف إذن؟ وهل كان يحمل عنوانًا؟

- نعم.. حضرة الكونت يونرفيل.

- حضرة الكونت..

أبطأ راوول مرة أخرى، فهو يقترب الآن من النهاية:

- ومن أين أتي؟ أولي أن تتذكري.. كيف كان الطابع.

- أوه، كان طابعًا قديمًا.. وعليه رأس سيدة.. كان جدي يقول إنها الملكة فيكتوريا.

هكذا.. الملكة فيكتوريا.. خطاب مرسل من إنجلترا للكونت يونرفيل! في أعماق الظلام الذي يتخبط فيه راوول، ومضت نقطة مضيئة تشير إلى المنفذ البعيد للنفق.

واستطردت فاليري تقول:

كان جدي يقول لي إنه سيعطيني إياه عندما أكبر، وأنه لا يجب أن أتخلى عنه أبدًا.

زمجر راوول.. «سوف نسترده، وسأعيد إليك جدك أيضًا».

قالت فاليري:

- ربما ينهرونني في القصر لأنه ليس لي الحق في الخروج من غير إذن.

- كلا. سوف أهتم بذلك.

وألقى نظرة إلى ساعته وأردف:

- ثم إننا سنبلغ القصر قبل عودة السيد فيرانج، فاطمئني.

سكتت الطفلة وقد شعرت بالاطمئنان.. وراح راوول يفكر.. هذه المحاولة الجديدة التي أقدم عليها البارون تدل على أنه لا يملك كل الأوراق، ولا ريب أن مذكرات الكونت يونرفيل لم تفده بشيء.. ومادام هناك سر فلابد من الاعتراف بأن هناك شفرة تحميه.. شفرة لم يستطع البارون حل رموزها، كما لم يستطع حل رموز الكلمات: يعقوب.. القديس جان.. دارتنيان.. يبقى خطاب إنجلترا.

وقال راوول:

- نحن متعادلان.. إن معه الخطاب ومعي الجلد، وهذا الأخير يعرف مضمون الخطاب عن ظهر قلب وسوف يذكره لي، وإلا فلن يبق أمامي إلا أن أعمل غفيرًا.. هيا يا صاحبي، إن الحياة جميلة!

كرمة القديس جان

استعاد راوول دون أى جهد شخصية أمين المكتبة، وبدأ عمله مثيرًا ارتياح سيد القصر. فما أن يغادر هوبير فيرانج البيت.

ويمضى إلى المصنع حتى تأتى لوسيل وتنضم إلى ذلك الذى مازالت تعتبره صحفيا. وكانت تساعده بقدر استطاعتها وكان يطوف بالجزء العلوى من المكتبة وينطق بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين فتدونها فى سجل بعناية كبيرة، وكان ينحنى أحيانا فوق الدرابزون ويتأمل الفتاة وقد انحنت فى رقة فوق السجل، ثم يتملكه الارتباك ويعاد عمله.

ولكنه رغم ذلك لم ينس مهمته لأنه كان يحس أن العدو يحوم حول يونرفيل غير أنه منح نفسه مهلة بجوار الفتاة الفاتنة، ومن ناحيتها هى، لم تعد تستطيع الاستغناء عنه.

وكان قد مضى يومان على اختطاف فاليرى لم يقع فيهما أى حادث

مؤسف، وكان راوول يصطحب البولدوج، وكان قد تصادق معه، ويقوم بالتفتيش سرًّا، بعد أن ينام الجميع ويتحقق من الأقفال والأبواب والنوافذ، وكان يقوم أحيانا أثناء الليل ويتجول فى الممرات الكبيرة الواسعة أو يمضى ويتأمل لوحات المعرض، ويفحص الجدران بسبابته وهو لا يدرى عم يبحث.. ربما عن ممر سرى وربما عن مخبأ.

وكان يعلم أنه يجب أن يعود إلى برونو وأن يتعجل الشيخ برناردان، ولكنه كان يقول لنفسه إن من الحكمة أن يترك الشيخ العجوز حتى يطمئن ويأنس إليه ويفهم أن من مصلحته أن يتكلم.. ثم إنه كان يهبط إلى قرارة نفسه وينظر فى شىء من الانقباض إلى الحقيقة دون موارية ويقول: أنت تحبها.. كن صريحًا.. إنها تحرك مشاعرك بشبابها.. وأنت؟ أنت تثير خجلى.. ولكن افتح عينيك.. أنت أول رجل تلتقى به.. ثم إنك غامض وتثير إعجابها فى نفس الوقت، فلا عجب إذا خفق قلبها أمامك.. ولكن حذار أن تلمسها يالوبين.. عليك أن تنصرف على أطراف قدميك بمجرد أن تفرغ من هذه القضية.. لن تكون بالنسبة لك أكثر من ذكرى.

ثم وقع حادث أثار اضطراب راوول وقلقه، فبينما كان يفحص الكتب والأضابير الموجودة فى آخر المكتبة اكتشف مظروفا كبيرا

أصفر، وهم بأن يفتحه حين أسرعت إليه لوسيل وهى مضطربة الوجه وهتفت تقول:

- كلا، أرجوك، لا تنظر إلى ما بداخله.

قال فى شىء من الاستياء: آه، حسنا، ليس من عادتى الفضول.

- أتسخر منى؟
- لوسيل.. وهل أسخر منك حقًّا؟
- إنك تخمن كل شىء فقل لى ماذا يوجد فى هذا المظروف.
- لا أدرى.. يبدو أنها قصاصات جرائد.
- هو ذلك.. إننى أقتطفها من بعض الصحف القديمة.. ثم ولكن لا أهمية لهذا.. لا أريد أن أخفى عنك شيئًا.. هيا.. يمكنك أن تفضه.

أطاعها راوول وأجفل على الفور، فقد عرف هذه القصاصات كانت تضم كل المقالات التى سبق أن أرسلها إلى جريدة (ايكودى فرانس والفيجارو والجولوا)، يتهكم فيها من ضحاياه، ويعلن عن نواياه أو يدافع عن سمعته، وتملكه انفعال شديد وأغمض عينيه وراح يستظهر إحدى هذه المقالات وشاركته لوسيل لعبته وأغمضت عينيها

هى الأخرى واستظهرت مقالة ثانية.

وراح كل منهما يتحدى الآخر ويستظهر التواريخ.. سنة ١٩١١م.. كلا، بل سنة ١٩١٢م، وكانت لوسيل هى الرابحة، وأوشك أن يقول: إننى نسيت فقد وقعت أحداث كثيرة منذ ذلك التاريخ، وانفجرا ضاحكين كما لو كانا طفلين.

وسألته لوسيل: إذن فأنت شديد الإعجاب به أنت أيضا؟

- الحق إننى..

وعادت تقول فى ارتباك ظريف: أما أنا فإننى أكن له.. أكن له.. همس راوول وقد شحب وجهها:

- تكلمى.
- إنه جذاب جدا.. وغريب الأطوار حقا.. وعمى تأتيه كل صحف باريس.. تماما كما كانت تأتى لأبى، وهكذا استطعت.. ليس ممنوعا أن يحلم المرء.. أليس كذلك؟
- يقينا لا.
- كنت أتصور أنه.. أوه.. هذا أمر مضحك.. كنت أتصور أنه قد يأتى ذات يوم، فالقصر مشحون بأشياء تستحق السرقة..

ولكنه لم يأت أبدًا.

صاح: ولكن.. أرسين لوبين ليس كما تتصورين.. إننى على يقين من ذلك لأننى التقيت به.

- التقيت به؟

ولمعت عيناها فضولا وانفعالا.. واضطر راوول أن يبذل جهدا كبيرا لكى لا يضمها بين ذراعيه، وابتعد عنها قليلا.

- نعم.. التقيت به كثيرًا، فمهنتى تقتضى أن ألتقى بجميع الناس تقريبًا.
- وكيف هو؟
- أوه.. إنه رجل عادى كغيره من الرجال.

قالت لوسيل وهى تضم يديها:

- بل هو رجل عجيب، فبالنسبة لى أنا التى أعيش هنا سجينة القصر، يبدو لى ذلك الرجل الذى عاش كل هذه المغامرات أنه.. أنه.. لا أستطيع أن أفسر لك.. لو أنه ظهر أمامى فجأة فأظن أنه سيغمى على أو أننى سأقدم على شىء غير لائق.

وعاد سيد القصر فوضع فجأة نهاية لهذا الحديث.. ومضى إلى

المائدة، ولكن راوول كان شارد الذهن وراح ينظر إلى لوسيل خلسة، وكانت لا تزال بادية الانفعال، وكان فيرانج يتكلم ويتكلم.. ولكن عم كان يتكلم فى الواقع؟ عن الصيد.

كان يقول: فى الماضى كان البستان أكبر من ذلك بكثير، كان عبارة عن غابة تمتد بعيدا حتى جسر أوديهار، وكان أشراف يونرفيل يملكون سربا من كلاب الصيد، ومازالت هناك حتى اليوم شرفة كبيرة فى جناح لويس الثالث عشر كانت سيدات القصر يشهدن منها هجوم الكلاب على الفريسة كما يحدث فى مدينة شامبور.

قال راوول فى لهجة مهذبة، وكان ذهنه فى أماكن أخرى:

- هذا غريب جدا.
- أليس كذلك؟ سوف تمضى إليها بعد أن نفرغ من الطعام ما دامت تهمك هكذا.
- كما تشاء.

وهكذا، وبعد أن فرغا من تناول القهوة تأبط فيرانج ذراع كتارا فى غير تكليف وقال:

- آه اعلم أن الدرج الذى يؤدى إلى الشرفة قد نخره السوس بحيث انتهى به الأمر إلى الانهيار، ونحن نستخدم سلمًا خشبيًّا

مؤقتًا.

ولكن لا تخش شيئًا.. إنه سلم متين، وأنا وزنى أكثر منك بكثير وأصعد بسهولة، وأمضى من وقت لآخر إلى تلك الشرفة لأستمتع بالمنظر الجميل الذى يطالعنى من هناك وسوف ترى بنفسك.

وبلغا آخر الممر الطويل الذى يؤدى إلى غرف الطابق الثانى غير المسكونة، وفتح فيرانج بابا أفضى بهما إلى مخزن دائرى.

وقال هوبير فيرانج: البرج الغربى.. وهذا هو السلم.

وقال كتارا مذعورًا: يا إلهى.. إنه عال جدا.

- سأتقدمك وأريك الطريق.

وإذ قال سيد القصر ذلك أمسك بقائمتى السلم وبدأ يصعد.

وقام أمين المكتبة الشاب بدوره بأعجوبة وأبدى فزعًا طرب له فيرانج كثيرا وقال: إن السلم ينثنى قليلا بالطبع، ولكننى أؤكد لك.

وكان قد بلغ قمة السلم، ودوت طقطقة، ولم يجد راوول الوقت المناسب لكى يثب بعيدًا، ووقع فيرانج عند قدميه مثيرًا سحابة من الغبار، وانحنى راوول فوقه، كان الرجل قد فقد الرشد وانساب خيط رفيع من الدم عند أذنه.

وانحنى ساقه اليسرى بصورة غريبة، وصعد راوول السلم فى خفة، وكانت العارضتان العلويتان قد انكسرتا، وأثبت له فحص سريع أنهما نشرتا عند مستوى القائمتين وكانت أسنان المنشار واضحة جدا.

وهبط راوول وهو مشغول البال، لم يكن حادثا عرضيا وإنما كان تخريبا متعمدا تم بحذق ودهاء، مرة أخرى سبقه العدو وعمل فى الخفاء.. ومرة أخرى كانت فى مكيدته الضارية شىء أشبه بطريقة البارون.. مكيدة حاذقة ولكنها شديدة القسوة.. ولكن من هو؟ من هذا المخلوق الخفى الذى لا يرحم، وأية معاهدة بشعة عقدها مع جالسيران؟

تردد راوول، هل ينبغى أن يترك سيد القصر المسكين لكى يسرع وينبه لوسيل بالخطر؟ ولكنه لم يلبث بعد شىء من التفكير أن أدرك أن الشرك قد أعد منذ وقت طويل، وأن الذى أعده شخص راح ينتظر فى صبر فى مكان آمن كما فعل مع جاك فيرانج وزوجته، وأن فى مقدوره إذن أن يترك سيد القصر وحده بضع دقائق أخرى.

وتظاهر بالذعر وأسرع يبحث عن عون، وعاد بأشيل وأبولين وبينما كان الخادمان يحملات سيدهما، وكان لا يزال مغمى عليه، إلى غرفته، أخطر لوسيل بما حدث وطمأنها فى نفس الوقت بقدر استطاعته، ثم

أرسل أشيل إلى البلدة لكى يأتى بطبيب.. وكان الفضل له فى عودة الهدوء والنظام فى بضع دقائق.

وخلعوا عن فيرانج المسكين ثيابه فى حرص شديد ومددوه فى فراشه، وعاد إلى رشده فى بطء، وجلست لوسيل بجواره، وجففت أبولين دموعها فى حين كان السكرتير العديم الشأن فى كل مكان، يساعد الجميع ويتخذ أعجب الإجـراءات مبرهنا للجميع خفية مقدرته وكفاءته بحيث إنه، بينما كان يعد جبيرتين، أمسكه سيد القصر بيده وقال:

- أشكرك.. أشكرك.. إننى أدين لك بالكثير، ولن أنسى جميلك هذا أبدا.
- صه.. لا تتكلم ولا تنفعل.
- لا أدرى كيف حدث هذا.
- بأسهل ما يكون، فإن وزنك ثقيل فانسكرت عارضتان.. آه.. ها هو الطيب.

وابتعد مع لوسيل، وانتظر نتيجة الكشف فى الخارج، وسألته الفتاة: هل تظن أنه حادث وقع قضاء وقدرًا؟

- كلا للأسفل.. فقد نشر بعضهم عارضتين بالسلم.

- رحماك يا إلهى.. متى ينتهى هذا الكابوس.
- قريبًا، أعدك بذلك.
- ألا يجب أن نبلغ البوليس؟
- أبدًا، لا يجب هذا على وجه الخصوص، فنحن لا نملك أدلة كافية ثم إننا أمام أعداء ماكرين لن تهمهم تحريات البوليس فى شىء، كلا.

إنما يجب أن نضاعف من احتياطاتنا ومن ناحيتى، لن أبقى مكتوف اليدين كما تظنين.

وفتح الباب عندئذ واستدعاهما الطبيب، وكان صريحا لأنه قال:

- إننى سأنقل مسيو فيرانج، فإن حالته تزعجنى كثيرًا، سوف أعالج ساقه بدون مشقة ولكن قلبه ليس سليمًا تمامًا، ولا ريب أن الصدمة كانت عنيفة جدا، ما كان يجب أن يقوم بأعمال الشباب وهو فى هذه السن، سوف يساعدنى أشيل وننقله إلى عيادة هونفلور ونضعه تحت الفحص بضعة أيام، وأرى أنه سوف يشفى سريعا، ولكن الحرص واجب.

ودخل أمين المكتبة الغرفة وحيا مسيو فيرانج فى رفق وتمنى له الشفاء العاجل ثم خرج كما تقضى المجاملات، ولكنه بدلا من المضى

إلى غرفة المكتبة عاد إلى البرج الغربي، وما هى إلا لحظات حتى أسند السلم إلى الحائط بخفته ورشاقته المعهودتين.

لم يكذب سيد القصر، فقد كان المنظر من أجمل المناظر التى رآها فى حياته.

ولكن راوول لم يكن فى القصر للفرجة أو السياحة، فبعد أن ألقى نظرة سريعة على الريف الذى أضفى عليه الصيف لونا ذهبيا، وعلى المقبرة، والبرج القديم المهدم الذى رأى منه قصر يونرفيل لأول مرة، وبعد أن ألقى نظرة يقظة إلى فناء الشرف حيث إن أشيل وأبولين ينقلان المصاب إلى السيارة ويدثرانه بالأغطية فى عناية فائقة، نقل اهتمامه إلى الشرفة وعبارة فاليرى الصغيرة ترن فى أذنيه (إنه يمشى على أربع فوق السطوح)، ولكن أى سطوح؟.. على هذه الشرفة لم يكن هناك داع لأن يمشى المرء على أربع لأن فى مقدوره السير على أتم راحته، ولكن كان من المستحيل الانتقال منها إلى مكان آخر لأن الألواح الحجرية كانت شديدة الانحدار.. فما معنى العبارة التى ذكرتها الصغيرة.

اعتمد راوول بذراعيه على الدرابزون الرفيع الذى يحيط بالشرفة وتابع بعينين فاحصتين السيارة وهى تنطلق بالمصاب، كان من السهل طبعا وضع قائمة، جاك فيرانج وزوجته قتيلان.. وهوبير فيرانج فى

المستشفى وفى خطر كبير، فقد يموت هو الآخر، ولوسيل التى نجت من حادث والتى لازالت تتعرض لخطر فظيع.. وإذن؟ يتبقى ثالث الإخوة فيرانج إذن العلم الذى تحدثت عنه عرضا والذى يؤول إليه قصر يونرفيل والممتلكات الملحقة به بعد موتهما.. هذا غريب.. لا أثر من هذه الناحية.. ولكن مهما يكن من أمر فما هى العلاقة بين هذه المحاولات وبين الموت البشع لصاحبى القصر السابقين؟ وأية علاقة بينهما وبين يعقوب والقديس جان ودارتنيان.. والدم؟ أهو دم كل هؤلاء الضحايا؟

فى تلك اللحظة، وكان راوول يلقى نظرة أخيرة إلى الأسطح لكى يقنع نفسه بأن العصفور وحده يمكنه أن يمشى فوقها، ورأى شيئًا أثار كل اهتمامه، فإن إحدى الهوائيات العديدة التى ترتفع فوق الأسطح لم تكن تدور وفى حين إنها كانت تشير كلها إلى الشمال الشرقى، وكانت الأسطح حافلة بكل نوع منها، ومن أعلام مختلفة إلى حيوانات وسهام بسيطة ومعدنية، كانت هناك واحدة

ظلت تشير إلى الجنوب فى إصرار، وكانت تلك الهوائية تمثل فى صورة فظة هيئة إنسانية.. جنديا شاهرًا سيفه.

وفجأة، فهم راوول كلا، لم يكن جنديا عاديا وإنما كان فارسا..

ولكن.. ولكن.. أنت مخطئ يا لوبين، وإذا استمررت على هذا فسوف ترى فرسانا حتى فى السحب التى تمر فوقك.. ومع ذلك، كان الصدأ يعلو الهوائية.. تآكلت بفعل الدخان وتقلبات الجو، ولابد أنها فى مكانها هذا منذ أجيال طويلة، ولكن المعطف ذا الثنيات المتوترة التى تتعرض للريح، كشراع سفينة والسيف المشهر نحو السماء والحذاء.. نعم، هذا فارس حقا.

واحتد راوول غضبا لأن هذه الأدلة التى زرعها قدر ساخر تحت قدميه، كفتات الخبز لم تكن تؤدى إلى شىء.. دارتنيان يفوز بالمجد والثروة بحد السيف، ها هو الآن أمام دارتنيان، ولكن إلام يشير بسيفه؟ إلى الريف أم إلى السماء؟ أم الفضاء.. ثم، هناك دارتنيان آخر فى قاعة المعروضات ثم.. ولكن، لا داعى لأن يشغل ذهنه ويفرط فى التفكير، وسوف تأتى اللحظة التى تلتئم فيها جميع قطع اللغز.. كانت قوة هذا الرجل الفذ فى أنه لم يكن يكابر ويعاند نفسه.. كان يعرف خبرا من أى شخص آخر اللحظة التى يتيح فيها الاستنتاج والمنطق وحدهما إحداث ثغرة فى جدار الظواهر المضادة، وإذا بدا له الطريق مسدود فى أية لحظة فإنه يغير الاتجاه على الفور ويبحث عن منفذ فى مكان آخر، وكان المنفذ فى الوقت الحالى هو الفونس فيرانج.

هبط راوول دون أية مشقة وطفق يبحث عن لوسيل، ووجدها فى غرفة المكتبة، وما أن رأته حتى حاولت أن تخفى دموعها فقال:

- ليس هذا بجميل.. اتنتهزين فرصة أن أوليك ظهرى فتبكين كما لو أننى لا أستطيع الدفاع عنك.

تمتمت: ذلك أننى خائفة جدا، سيلحقون بك الأذى أنت أيضا.

- أنت تعذبين نفسك من أجلى إذن يا عزيزتى لوسيل.. لو أطلعتك على قصتى فسوف ترين أننى اجتزت أخطارا أخرى كثيرة بدون ألم.

كان شديد الانفعال، وفى رفق كبير أحاط كتفى الفتاة بذراعه وقال:

- لا تخشى شيئًا يا لوسيل.. أنا كالمداخن والنار غذائى.

ابتسمت خلال دموعها وقالت: إنك تشبه.

- من هذا؟

- هو.

وأشارت إلى المظروف الذى يحتوى على قصاصات الجرائد، وقال راوول مازحًا:

- أوه.. وددت ذلك، ولكننى دونه بكثير، ومع ذلك فإننى

أعرف ما قد يفعل لو أنه هنا.

- وماذا يفعل؟
- سيلقى عليك أسئلة لا نهاية لها، سيطلب منك أن تزوديه بكل ما تعرفين عن عمك ألفونس.

كانت لهجته مرحة فيها سخرية يشوبها شيء من الرقة.. كان يملك قدرة عجيبة لبث الهدوء فى القلوب، ونسيت لوسيل قلقها وردت عليه فى نفس اللهجة المرحة:

- كنت أقول له: سلنى يا مسيو لوبين، فإننى لن أستطيع أن أخفى عنك شيئًا.
- حسنا، فلنبدأ إذن، أريد أن أعرف قبل كل شيء آخر لماذا لا نرى هذا العم أبدًا، كان يجب، طبعا، أن يشعر بشيء من القلق عليك وعلى أخيه، وأن يأتى لزيارتكما أو أن يدعوكما لزيارته.
- إن عمى هوبير لا يحبه كثيرا، ويجب أن أعترف بأنه ليس ودودا مع أحد، ومهما يكن فهو يعيش فى عزلة كالرجل المتوحش.

وتنهدت: ومع ذلك فإن والداى كانا متفاهمين جدا معه، وأبى على الخصوص.

- وأين يقيم؟
- ليس بعيدا من هنا.. بعد كنيسة سانت إدريس، قد مررنا به فى عودتنا من (الصخرة الكبيرة)، ولا أذكر إذا كنت قد حدثتك عن ذلك، ولكن (الصخرة الكبيرة) كانت جزءًا من أرض اشتراها أبى قبل زواجه بكثير، وفى أسفل الصخور، هناك البيت.. أعنى الكوخ الذى تعرفه.

وارتجفت فتمتم راوول:

- نعم.. تكلمى فإننى أعرفه.
- وهناك، بعده بقليل، فوق التل، البيت الذى كنا نعيش فيه.. فى وسط مزرعة كان أبى قد اشتراها بثمن زهيد وأدخل عليها إصلاحات لكى تكون مقاما مريحا، ثم تنازل عنه لأخيه الفونس بعد أن اشترى يونرفيل، غير أنه احتفظ لنفسه بالصخرة الكبيرة.
- لقد كان هذا كرما منه.
- كان أبى كريما جدا فى الواقع.
- وماذا فعل هذا الأخ؟

- لا شيء يذكر.. فكر فى أن يكتب.. وكان قد كتب فى شبابه ديوانا من الشعر.. بضع قصائد على نمط هيريديا لأنه كان معجبا به جدا، ثم كتب بعض الروايات بعد ذلك ثم فترت همته شيئًا فشيئًا.
- معنى هذا أنه رجل فاشل.. وفى أثناء ذلك كان يرى أخويه يزدهران وهذا البيت، هل يعرف باسم؟

نعم، كرمة القديس جان.

وكان راوول قد ألقى هذا السؤال بطريقة آلية ما أن يسمع الرد حتى أجفل.

- كرمة القديس جان!.
- قالت لويس:
- نعم.. وما الغرابة؟
- لا شيء.. لا شيء بالطبع.

ولكن حاجته إلى العمل جعلت الدم يغلى فى عروقه، فقال:

- هل هو الذى أطلق على البيت هذا الاسم؟
- كلا، كان البيت معروفا بهذا الاسم عندما اشتراه أبى.

خفض راوول صوته وقال: أين كلبك؟

- فى غرفتى، نائم.
- أريد أن تصطحبيه ابتداء من اليوم فى كل مكان.

ووضع أصبعا على شفتيه، وفى ثلاث خطوات كان بجوار باب قاعة المعرض، ففتحه فى عنف، ولكن لم يكن هناك أحد، وارتد صوت اصطفاف الباب مدة طويلة كرنين الجرس فى قبعة الكنيسة، وعاد على عقبيه وهو يحاول أن يتظاهر بالهدوء وعدم الاكتراث.

- معذرة، خيل لى أننى سمعت.. هذا سخيف، إن أبولين لديها ما يشغلها طبعا غير استراق السمع.
- أوه.. إننى أكفلها.. وأكفل زوجها أيضا.. إنهما شديدا الإخلاص لنا ثم إن أشيل لم يعد بعد.

غير أن راوول لم يكن يفكر لا فى أشيل ولا فى أبولين.. إنما كان يفكر فى (الآخر).. فى ذلك الذى نشر العارضتين والذى خرب قبل ذلك مركبة الفتاة، وأعد فخ الباب القلاب.. أهو الذى كان يقف منذ لحظات عند باب المعرض.. ذلك لأنه كان هناك شخص يقف بالباب بالتأكيد.. وكان راوول واثقا من ذلك.. أيمكن أن يكون هو البارون.. ونظر إلى ساعته.

- عودى الآن إلى غرفتك، وعندما تغادرينها بعد عودة أشيل اصطحبى بولوكس معك.. هل تسمعين؟ أما أنا فلدى عمل خاص أريد أن أتحقق منه، وسأبقى فى الخارج وقتا طويلا، وأريد أن يكون قلبى مطمئنًا، وبهذه المناسبة، قد أحتاج إلى مفتاح إذ ليس فى نيتى أن أطرق الباب ربما فى منتصف الليل.
- هذا أمر ميسور، سأعطيك مفتاحى فإننى لا أستخدمه أبدا، تعال، إنه فى درج مكتبى.

وخرجا من المكتبة، وقال راوول: ولكن لا تتوهمى أن هناك أشياء بحق الله، أنت لست فى خطر.. فى الوقت الحالى على الأقل، فنحن نواجه رجلا يأخذ كل وقته ويتصرف تصرف القناص، فهو يلقى بشباكه وينتظر فى صبر فى الأماكن التى يمر ضحاياه دون حذر.

ولكن إذا توخينا الحرص وظللنا متيقظين فلن نتعرض لأى خطر.. الخوف ممنوع وأنا غائب.

- لن أخاف.

وبسطت له يديها فى براءة وأحس بأن رباطة جأشه ستخونه فتمتم:

- امضى سريعا، أعطينى هذا المفتاح لكى أذهب، آه،.. نسيت.. سأستقل السيدكار، ولك أن تقولى لأشيل ما تشائين.

وانتظرها أمام إحدى النوافذ الكبيرة التى تطل على فناء الشرفة، كان كلما ازداد تفكيرا كلما ازداد اقتناعا بأن العدو ذكى وشديد الحرص لكى يقوم بمحاولة أخرى فورا، وكلما ازداد اقتناعا كذلك بأن العم ألفونس يلعب دورًا فى هذه المأساة الغامضة، ولكن كيف؟ إنه لم يكن يستطيع أن يظهر حتى لا يفتضح أمره على الفور، ولكن ذلك الذى كان راوول يدعوه بالوحش كان يبدو أنه يعيش فى جواره آل فيرانج، ويتجول فى القصر كمخلوق خفى، كان هناك سر مخيف فى هذا الصدد.

قالت لوسيل:

- ها هو المفتاح.. توخ الحرص.

كانت تقف بجواره بريئة، مطمئنة، آمنة بوجه أنثى وعينى طفلة.

وأردفت تقول فى تلقائية:

- سأفكر فيك كثيرًا.

وهم بأن يصرخ:

- ولكن احتمى بالله.. ألا ترين أنك تعذبينى وإننى لا أطيق.

وأخذ المفتاح واختفى، ونقل غضبه الذى يغلى فى كيانه إلى الموتوسيكل، على أن غضبه هذا لم يكن غضبا بمعنى الكلمة وإنما كان

حزنا وشجنا، وخطر له لحظة أن ينعطف إلى طريق آخر لكى يمضي ويستجوب الشيخ برناردان وأن ينتزع منه سر يونرفيل طوعا أو كرها، ولكنه عدل عن غرضه هذا خوفا من أن يضيع وقتا ثمينا.

ولكن عندما وصل إلى الهافر تعطل الموتوسيكل واضطر أن يبحث عن جاراج وأن يعود بالميكانيكى الذى راح يفحص المحرك فى غير اقتناع ويردد فى إصرار: إنها الشمعة.. هى الشمعة بالتأكيد.. وعندما أصبح السيد كار صالحا للاستعمال أخيرًا كان الليل قد بدا يهبط، ولو أنه مرت دقيقة أخرى على الميكانيكى لما كان هناك أى شك فى أن يكتم راوول أنفاسه.

وانطلق أخيرا فى طريقه إلى سانت أدريس، واندفع غير آبه بالحفر والأخاديد حتى الطريق المؤدى إلى الصخور والمنحدر حيث يقع بيت (الصخرة الكبيرة) وحيث يجب أن تكون (كرمة القديس جان) على يمينه، وترك السيد كار خلف أجمة وسار مسرعا، كانت كرمة القديس جان حقا يحيط بهم سور قديم يكاد يكون مدفونا فى غابة من النباتات المتسلقة ويستطيع طفل أن يتسلقه دون صعوبة.

واجتازه راوول ورأى البيت، كانت لوسيل قد تكلمت عن مزرعة قديمة وتوقع أن يجد بيتا قديما ولكن كانت دهشته كبيرة حين رأى بيتا

حديثا تعلو بابه تعريشة جميلة.

كانت النوافذ مغلقة بمصاريعها الخشبية، ولم يكن هناك أى نور فى الطابق الأرضى ولا فى الطابق العلوى، ومع ذلك فقد كانت هناك هالة من النور حول السطح، وراح راوول يتحرك بدون صوت فدار بالبيت وتراجع بضع خطوات إلى الخلف، وأدرك على الفور أن الضوء المبهم الذى يثير حيرته ينبعث من كوة فوق السطح، ولاشك أن والد لوسيل قد أقام له مرسما، وعندما كانت الظروف تمنعه من الذهاب إلى الصخرة الكبيرة كان يرسم لوحاته فيه، ولاريب أن أخاه كان فى تلك اللحظة فى المرسم يكتب أو يقرأ.

كان بيت الخزين يرتفع بجوار الجدار، ولم يكن تسلق السطح يشكل أية مشكلة، وقد اجتاز راوول العقبة كالشبح، مستعينا بشجرة لبلاب قوية، ولم يعد أمامه إلا أن يتقدم حتى المرسم وهو يتوخى الحذر التام وألقى نظرة وما كاد يفعل حتى تجمد مكانه.

رأى تحته رجلا عرفه على الفور.. خادم البارون.. ذلك الذى هدده بالمسدس وكان يضع يديه فى جيوبه ويدخن سيجارة وينظر إلى الجزء الذى لم يتمكن راوول من رؤيته بعد.

كان لابد له لذلك أن يتقدم أكثر ولسوء الحظ كان القمر بدرا وكان

من الممكن أن يعكس ظله على أرضية المرسم.. ولهذا تقدم بمنكبيه بضعة سنتميترات، وكان كلما ازداد تقدما كلما اتسع المنظر تحته، كانت هناك كتب لصق الجدار، وفوق المنضدة مجلة لا تزال مفتوحة، ولكن أين ألفونس؟

ولم يلبث أن رآه، وتوترت ملامحه على الفور، لأنه رأى ألفونس موثق اليدين فوق مقعد والبارون جالسيران يقف مصوبا مسدسه نحوه، رأى كل شيء في وضوح وخيل له أنه يحلم، وفي هذه المرة لم يكن راوول ممددا على صدره فوق الأرض الصلبة وإنما فوق سطح، ولم يكن المجرمون يحرقون قدمي الضحية ولكن الأمر كان أسوأ.. كانت المسألة مسألة ثوان، وكان من السهل أن يفهم كلمات البارون رغم عدم سمعها: واحد.. اثنان.. ثلاثة.. السر وإلا قتلتك.

كان فيرانج يحرك رأسه ذات الحاجبين الكثيفين التي تجعله يشبه هوبير، وكان يقول: لا.. خمسة.. ستة.. سبعة.. جالسيران يوشك أن يطلق النار وصعدت صرخة في حلق راوول: (كلا، إنك لن تقتله أمام عيني بكل جرأة).. وزحف أكثر.

وكانت كارثة، فإن لوح الزجاج الذي كان يتكئ عليه انكسر فجأة ولم يجد الوقت الكافي لكي يرتمي جانبا ثم يرتد حتى الجزء الصلب من

السطح، ووقع لوح الزجاج فى المرسم وتفتت متناثرا فوق الأرض.. الهرب.. كان لابد من الهرب لإقصاء المجرمين عن فريستهم.

وسوف يتفاهمون إذا ما بلغوا الأرض المكشوفة.. رجل إزاء رجلين.. كانت اللعبة غير متعادلة وهى معركة خاسرة مسبقا بالنسبة للبارون.. وفكر راوول.. ليتهما لا يطلقان على الرصاص، فمع أناس حمقى مثل هؤلاء يمكن توقع كل شىء.

وأسرع إلى سطح المخزن، ورغم أنه كان واثقا من نفسه ومن سرعة قدرته على الارتجال فقد راح يلعن نفسه لأنه أتى من غير أن يأخذ معه سلاحا، فإن المسدس الضخم الذى يحتفظ به سيد القصر فى درج مكتبه كان يمكن أن يساعده، وفى اللحظة التى لمست فيها قدماه الأرض سمع صيحة:

- من هنا.. فأسرع نحو الجدار وهو محنى الظهر.

ودوت طلقة خلفه فاعتدل واقفا وهو يسب ويلعن، ووثب فوق الجدار ولكنه سمع هذه المرة الرصاصة ترتطم بالصخرة، وعلى مقربة منه.. كان الريف يمتد أمامه مكشوفا والقمر بدرا ينير المكان بحيث إن راوول كان يرى خياله تحت قدميه كما لو كان الوقت نهارًا.

وأسرع نحو الصخور تشيعه رصاصتان أخريان وراح يفكر

وهو يجرى: ليس فى مقدورهما اللحاق بى ولكن إذا أنا هربت فقد تصيبنى رصاصة.. لا تهرب.. لا تهرب.. آه يبقى حل واحد.. وحل واحد فحسب وانحرف نحو البحر، وإذ تأكد الآخران أنهما سيضيقان عليه الخناق فى الفضاء كفا عن إطلاق النار واهتدى على الفور إلى الطريق المؤدى إلى الصخرة الكبيرة، وكان الرجلان يشقان طريقهما فى المنحدر، فوقعا فى مشقة لوعورة الدرب، وراحت الحجارة تتدحرج، وبلغ راوول البلاج، ومضى نحو البيت دون أن يسرع.

وصاح البارون: سلم نفسك فلا سبيل لك إلى الهرب، ووقف راوول على عتبة الباب ورفع يديه.. ووصل الرجلان وهما يلهثان بشدة ويشهران مسدسيهما فى عزم وقوة، وقال راوول:

- حسنا.. حسنا.. لقد ربحتما.

وكرجل مصمم على الحديث فتح الباب ودخل وتبعه الآخران.. وكان ضوء القمر يتسرب من خلال النوافذ.. ومع ذلك فقد أضاء الخادم مصباحه.

قال البارون:

- حسنا، لن يزعجنا هنا أحد.. إن لدينا حديثا طويلا يا صديقى العزيز فى أمور كثيرة.. اجلس.

- هذا لا يصح.. تفضل أنت أولا.
- قلت لك اجلس.. مفهوم يا لوبين؟
- مادمت تصر بهذه المجاملة التى تناسبك تماما، فليكن.

وجلس راوول وعقد ساقيه فى غير اكتراث.. وأخذ البارون المقعد الآخر، وقال فى خشونة: أنا الذى ألقى الأسئلة.

- كلا.
- ماذا؟
- كلا.. فطالما لم يعد رجلك المسلح مسدسه إلى جيبه فلن أتكلم.
- سوف نرى.
- هذا قرارى.

ومرة أخرى خضع البارون لقوة عدوه فأتى بإشارة أخفى الخادم مسدسه على أثرها، وعاد راوول يقول:

- وبهذه المناسبة، ألم يشترك رجلك الدميم فى الحفلة؟ هل تركته فى البيت؟ هذا إذا لم يكن مستقرا فى قاع السين.

وإزاء توتر البارون أدرك راوول أنه لمس الوتر الحساس.. وتثاءب فى أدب، خلف يديه، ثم قال:

- ألست ظمآنًا.. إن الجرى هكذا بعد العشاء يصيبنى بالظمأ.

صاح البارون: لن تشعر بأية رغبة فى أن تشرب فيما بعد.

- هذا جائز.. ولكن كأسان من الشمبانيا فى هذه اللحظة بالذات سيكون على الرحب.. هناك بضع زجاجات من الشمبانيا فى المطبخ.. قد لا تكون الخمر معتقة بما فيه الكفاية.. ولكن شيئًا أحسن من لا شىء.

وقال يخاطب الخادم:

- ألبس قفازك الأبيض وامض وائتنا بزجاجة.. سوف يسرنى جدا أن نتناول كأسا.

قال البارون وهو يضحك ضحكة ثقيلة:

- مادامت هذه رغبتك الأخيرة فلا بأس من الشمبانيا.

أزاح الخادم الستارة التى تخفى مدخل المطبخ وهو يقول:

- هل هى هنا؟

أجاب راوول:

- نعم.. على اليسار مباشرة.. الزجاجات مرصوصة فوق المائدة.. إننى أعرف ذلك، فقد رأيتها.

وأردف يقول فى غير اكتراث لكى يثير اهتمام البارون:

- كان فى نيتى أن أنقل الشيخ برناردان هنا.. ولكن تصور أن..

بدأ البارون يقول:

- آه.. هذا ما أريد أن أتحدث عنه بالذات.

قطع عليه الكلام قرقعة مفاجئة، فقد ابتلع الشرك الخادم.. وهب البارون على قدميه وهو يقول يقول:

- ما هذا؟.. ماذا تصنع؟

وأزاح الستارة، ووقف مصعوقا وهو يرى الغرفة شاغرة.. ولم يترك راوول له الوقت لكى يعود من دهشته فأسرع نحوه ودفعه بقبضته إلى الأمام، ووجد البارون نفسه يندفع نحو الشرك، واختفى بدوره وهو يصرخ.

وجفف راوول أصابعه بمنديله وهو يقول:

- أف!. إن التسليم من الباب للباب أمر مرهق.. إننى لأستحق حقا أن أتناول كأسا بعد هذه المشقة.

ودار بالباب القلاب، والتقط فى طريقه المصباح الذى وقع من الخادم ودخل المطبخ.. وهناك، ورغم توتره العصبى انفجر ضاحكا..

كلا.. إن هذا لأمر غير مصدق.. لقد صدق من غير أن يدرى.. كانت زجاجات الشمبانيا موجودة، ولكنها لم تكن مرصوصة فوق المائدة وإنما على الأرض، كان هنا ست زجاجات.. آه يا بارون، هذه متعة ليس بعدها متعة وإننى لأشكرك.

ولكنه كف عن المزاح على الفور.. هذه الزجاجات.. فكر فى وليمة الذكرى السنوية التى أعدها جاك فيرانج بكل الحب.. ووجد فى الشمبانيا مذاق الدم، وعاد إلى الستارة فى صمت وأصاخ السمع.. كان يكثران من الحركة تحت قدميه.. وانحنى نحو الباب القلاب وصاح:

- لا داعى للتعب والإرهاق أيها الصديقان فلن ينجدكما أحد.. ولكن أنا أستطيع.. هل تسمع يا بارون؟ لا يوجد هنا غير شخص واحد يلقى الأسئلة، وهو أنا .. فأجبنى إذن.. ماذا كنت تطلب من ألفونس فيرانج بكل تلك الرقة، هيا.. تكلم فإننى بحاجة إلى النوم، ولن أبق هنا طوال الليل.. كلا؟ اعلم أننى لست بحاجة إليك.. سأعود إلى الكرمة وأنقذ ذلك الرجل العزيز وسوف يسره أن يخبرنى بما أريد.. إذن؟ كلا؟ حسنا.. كما تشاء.. فلنتكلم الآن عن الخطاب.. أنت تعرف.. خطاب إنجلترا الذى يحمل طابع الملكة فيكتوريا.. فيما بيننا،

هو خطاب ثمين يطيب لهواة جمع التحف الحصول عليه.. إذا أعطيتنى إياه لفتح الباب.

دوت طلقتان أصمتان رجتا الأرض، وظهر ثعبان فى خشب الباب.. وقال راوول:

- حسن جدا.. أرى أن علاقاتنا مازالت على توترها بعض الشىء.. هذا أمر مؤسف.. ولكننى أحب مع ذلك أن أنبهك.. إذا كنت لا تعرف، فإن معكما رفاق فى القبو.. نعم.. هيكلان إذا تحسست الأرض فى رفق فسوف تجدهما، وصدقنى يا بارون إنه ليس من مصلحتك أن توقظهما.

ساد صمت عميق، وعاد راوول يقول: هل تحب أن أقوم بواجب التعارف؟ جاك فيرانج وزوجته.. البارون جالسيران وشريكه.. ميتان تحت التنفيذ.

وردت عليه صرخة ذعر ثم ارتفع صوت البارون وهو يتهدج من الانفعال، لست أنا.. لست أنا.. افتح.. افتح.

سأله راوول:

- من إذن؟
- لا أدرى.. أقسم لك.

- أليس لديك أية فكرة؟

لم يأت أى رد.. ولم يزد راوول إصرارا فإن الليل سيكون خير ناصح للبارون.. وخرج وأغلق الباب فى عناية كبيرة.. وكانت الحصى تبرق تحت ضوء القمر حتى الأمواج الأولى التى تتلاطم فوق الشاطئ من بعيد.. وأحس راوول بالتعب، ولكنه ما كان ليرضى بالراحة ولا حتى بالجلوس لحظة لكى يمتع عينيه بهذه السماء التى تتناثر فيها النجوم.. كان شغله الشاغل أن يسرع إلى الشيخ برناردان فى بيت فيكتوار.. وفكر.. البارون فى القبو.. وألفونس موثق القيادة فوق مقعده.. لقد كثر عدد الأسرى.

يجب أن أفتح سجنًا قريبًا.. وفى بطء صعد الدرب وهو يتوقف من لحظة لأخرى لكى يسترد نفسه مستمرا فى تأملاته.. لا ريب أن البارون لم يكذب عندما قال إنه لا يدرى من الذى قتل جاك فيرانج وزوجته، ووقوعه فى الفخ دليل على أنه لم يكن يعرف شيئًا عنه، ولاريب كذلك فى أنه لم يشترك فى الاعتداء المدبر ضد لوسيل ولا ذلك الذى وقع للوصى على الفتاة هناك شخص آخر يعمل فى الظلام، وهو يخطط لجرائمه بكل ذكاء ودهاء وينفذها فى غير رحمة، فى الخفاء، دون أن يعرف أحد شيئًا عنه.

سرت قشعريرة فى بدن راوول، كان يكره النضال فى الخفاء.. هذا الرجل الشجاع، القوى.. الذى يعرف كل الحيل كان يخاف من كل من يضرب غدرا وخيانة، ومن كل من يضع قناعا ويتقدم فى صمت وسكون مرفوع الذراع كما يفعل الأوغاد والأوباش، وبلغ الشاطئ.. هيا.. جهد آخر يتكلم ألفونس فيرانج، فلاشك أنه يعرف شيئا وإلا لما تعرض لاعتداء البارون.. لا أحد فى المكان.. لم يسمع أحد صوت الطلقات.. لم يكن فى الجو غير زقزقة العصافير.. لا حاجة به الآن للوثب فوق الجدران وتسلق المخزن.. كانت كل الأبواب مفتوحة، فقد خرج البارون وشريكه مسرعين.. وأسرع راوول واجتاز البهو الذى تغطى اللوحات جدرانه، حيث يقع فى آخر سلم صغير صعد درجاته فى طرفة عين ودخل المرسم.

كان ألفونس فيرانج منهارًا فوق مقعده وهو لا يزال موقف القياد وقد اخترقت رأسه رصاصة.

المذبحة

وهكذا ضرب الوحش ضربته، بل لعله لا يزال في البيت لأن جسد ألفونس فيرانج كان لا يزال دافئًا..

وابتعد راوول عن الجثة وهو يسحق تحت قدميه الزجاج فى صوت صاخب رغم حذره وحيطته.. ووقف فى ركن خفى لا يمكن لأحد أن يراه منه سواء من الخارج أو من رأس السلم.. كان يجب أن يرسم خطة سريعة مفاجئة وأن يبادر بالهجوم وإلا فإن جرائم جديدة يحتمل أن تقع.. ومع ذلك فإن راوول لم يستطع أن يحول عينه عن الجسد الموثق القياد.. انتابه الحزن فإنه فى اهتمامه بنضاله مع البارون لم يخطر له أن (الآخر) يمكن أن يكون موجودًا فى ساحة المعركة فى نفس الوقت.. وفى اللحظة التى اعتقد فيها أنه أصبح سيد الموقف إذا به يغلب على أمره بصورة نهائية وبطريقة مهينة ويقهره رجل أكثر منه حدة وذكاء..

رجل يتمتع بقسوة وضراوة ينتهز أهون الفرص للقتل.

تردد راوول فجأة وهو لا يدرى أى تصرف يجب اتخاذه.. أذهلته المفاجأة وأحنقه إحساسه بأنه أقل من مسئول.. وقف جامدا لا يتحرك ويداه فى جيوبه يحاول أن يحلل الموقف.. إنه أخطأ فى اشتباهه فى ألفونس فيرانج، لم يكن هناك شك الآن فى أنه برىء.. ولكن ما معنى هذه المذبحة؟ واضح الآن أن آل فيرانج يملكون سرا لا يعرفونه وقد استولى البارون على مذكرات الكونت يونرفيل فى البداية لاكتشاف هذا السر.. وإذا لم تفده المذكرات فى شىء اختطف الشيخ برناردان، ثم حصل بالدهاء والحيلة على خطاب إنجلترا ولكن الخطاب لم يفده هو الآخر مادامت نيته قد اتجهت إلى الاعتداء على ألفونس ولعل ذلك بسبب كرمة القديس جان، كل هذا يبدو واضحًا بما فيه الكفاية.

أما الشىء الغامض الذى لا معنى له ولا منطق والذى يزخر بالثغرات والمتناقضات فهو نشاط الآخر المخيف.. جريمتا الصخرة الكبرى والاعتداء المدبر على لوسيل والآخر الذى راح عمها هوبير ضحية له.. كلها فخاخ منصوبة، ربما منذ أسابيع.. فماذا كل هذا البطء الذى يتسم بالمكر والخبث، وما هى الغاية التى يسعى إليها المجرم على وجه الخصوص.. هل يريد أن يكتشف السر هو الآخر؟ ولكن بأية

وسائل ينوى الوصول إلى غرضه؟ هل يعلم بأمر المذكرات؟ والخطاب وكلمات السر، تلك الكلمات التى اضطر برناردان إلى البوح بها تحت وطأة التعذيب؟ وهل ذهب أبعد من البارون فى اكتشاف الحقيقة؟ وإذا كان السر مازال مستغلقا عليه، أفليس ذلك لأنه يقوم على أسس غامضة وعلى رموز عجز عن الاهتداء إلى حل طلاسمها؟

وعاد راوول يقول:

- أما أنا فيجب أن أهتدى إليها.. ربما لا ينقصنى غير نقطة واحدة فأنا لم أدرس العناصر التى أملكها بما فيه الكفاية.. ونسى المنظر الدرامى الذى يطالع عينيه، وأسرف فاستعاد إلى ذهنه كلمات الشيخ برناردان وكلمات الأستاذ فرينيزو، ماذا قال موثق العقود؟ لماذا أصر الملك لويس فيليب، وهو هارب، على العودة إلى قصر يونرفيل فجأة متحديا هكذا خطر الموت؟ كانت هذه العبارة هى الأخرى مفتاحًا لحل اللغز، فقد عاد الملك لسبب قهرى وقام بإجراء شهده إيفاريست فوتيريل الخادم الأمين، أبوبرناردان.. وقد انقرضت عائلة الكونت يونرفيل ولكن آل فوتيريل مازالوا على قيد الحياة، ومن هنا كان اختطاف الشيخ وتصرفات البارون تبدو معقولة ولكن

لماذا اعتدى (الآخر) على آل فيرانج؟ هنا الغموض من جديد.

تنهد راوول طويلا وبدأ كأنه يصحو، هل يفتش الجثة؟ لكن ما الفائدة؟ لو أن المسكين كان يملك شيئًا ذا أهمية فإن العدو قد حصل عليه.. بيد أن راوول كان يملك ورقتين رابحتين، وعليه الآن أن يلعب بهما، والورقة الأولى هى البارون، فبعد أن يمعن هذا الأخير التفكير والتروى فى حفرته، وبعد أن يعلم أن ألفونس فيرانج قتل فإنه سوف يدرك أن من مصلحته أن يتكلم، ومهما يكن فسوف يحصل راوول على خطاب إنجلترا، ثم يبقى عليه بعد ذلك أن يحمل الشيخ برناردان على الكلام.

هبط راوول السلم القصير واسترد نفسه لثانى مرة، وأحس بأن الحياة تحمله من جديد، كزورق يرفعه ماء البحر شيئًا فشيئًا.. وقبل أن يغادر البيت ألقى نظرة خبير إلى اللوحات التى رسمها جاك فيرانج ومهرها بتوقيعه وتمتم يقول:

- أقل من المتوسط.. مسكينة لوسيل! لم يكن أبوك يتمتع بأية موهبة فى الرسم.

وعندما هم بالخروج تمالك نفسه ومضى إلى المطبخ، وأخذ بعض الخبز واللحم البارد:

- إذا أردت أن أحملها على الكلام فلابد من إغرائها.

وابتسم لأنه كانت فى الردهة مرآة كبيرة عكست صورته، وأومأ برأسه لنفسه مشجعا، لم تكن الساعة ساعة مزاح أو مداعبة، ولكنه كان راض عن نفسه منذ وقت طويل على التغلب على مشاعره أمام الموت.. وعاد إلى طريق (الصخرة الكبيرة) وبحركة آلية اقتطع كسرة من الخبز وأخذ يأكلها وهو مسرع، وكان منظرا مذهلا أن ترى هذا الموظف البسيط الذى يرتدى جاكته فضفاضة من الجوخ وهو يأكل على ضوء القمر ويضم إلى صدره طبقا من اللحم وبعض الخبز ويخاطب خياله المفرط الطول الذى يصاحبه فى سيره.

(مساء الخير يا دون كيشوت، يسرنى أن ألتقى بك، فأنت لم تظهر إلا فيما ندر، منذ بعض الوقت.. هل تسمح أن أغذيك قليلا فإننى لم أرك أبدا بمثل هذا الهزال.. ذلك إنك لقيت منهم الكثير.. آه.. ليس غريبًا أن تدافع عن اليتامى كل يوم، فهذا يضرب ذات اليمين وذاك يضرب ذات الشمال، ولكن اعترف أنك لن تكون أنت نفسك إلا إذا لفظ الجحيم أبالسته السوداء عليك، تعالوا أيها الأبالسة لكى أمزقكم إربا.. هذه الفطيرة لذيذة.. ذقها واستمتع بالحياة.. إنها فى انتظارى.. امض، كلا، أنت على عجل دائمًا تصور أننى أيضا مثلك.. حذار، فقد

تقع على أم رأسك.. ها هو طريقك).

واندفع راوول فى الدرب الضيق ووقف أمام الكوخ.. لم يكن يقطع الصمت غير دوى الأمواج البعيد، ودخل، وقال:

- مساء الخير أيها الصديقان، لقد أتيتكما ببعض الطعام.

وجبة صغيرة تسندكما شيئًا ما.. فى مقدوركما أن تشكرانى على الأقل ماذا؟ أغاضبان أنتما؟

وفى حركة خرفاء فتش فى جيوبه بحثا عن المصباح الكهربى دون أن يتخلى عن الطعام، وأضاءه أخيرًا وأزاح الستارة وأفلتت من بين شفتيه سبة كان الفخ مفتوحًا وطرق السلم يبرز منه.. لقد هربا.. طارا.. ولكن من الذى خلصهما؟ من (الآخر طبعًا).. فلابد أنه كان يراقبه وأسرع إلى الكوخ بمجرد أن رآه يغادره.. وألقى بالخبز والطعام على المائدة وعاد إلى القبو وبث ضوء المصباح داخله.

وأخذته غصة على الفور، فقد كانا موجودين.. كانا ملتصقين بالسلم ورأس كل منهما ما تزال مرفوعة إلى أعلى، وكانا ملوثين بالدم وقد تجمدت عيناهما رعبا وذعرًا.. أصيب كل منهما فى مقتل وفاضت روحه على الفور.

ورأى راوول بعين الخيال رغما عنه تلك اللحظة الأخيرة.. السلم

يقلب باب الفخ والبارون يسرع قبل خادمه ولكن اليد المسلحة تظهر فجأة، وتنطلق الرصاصتان تتبعهما حشرجة الموت ثم الصمت المطبق.

لم تعد لراوول القدرة على التحرك.. لم يخطئ حين خطر له أن البارون ورجاله ما هم إلا شركاء للوحش.. لقد لعب البارون دوره الأخير وخسر، أما (الآخر) فبعد أن تخلص من ألفونس فيرانج تابع عملية الموت فى القبو ولم يعد أمامه إلا أن يهبط لكى يأخذ خطاب إنجلترا من جيب القتيل.. والآن؟

بعد استبعاد البارون يبقى الغريمان وجها لوجه.. راوول وشبح من المتعذر إمساكه.. شبح موجود فى كل مكان وغير موجود.. يضرب تارة فى بطء بحذق غادر وأخرى بوحشية وبسرعة الكوبرا.. واخترقت فكرة مخيفة ذهن راوول فجأة.. برناردان.. مادام (الآخر) يعرف كل شىء، ومادام يسبق غيره كما لو كان يقرأ أفكار خصمه فلعله يعرف الآن مكان الشيخ العجوز! ولعله فى هذه اللحظة بالذات.. كلا.. لو حدث هذا فإنه ليكون أمرا فظيعًا.. ولام نفسه لقضاءه اليومين الأخيرين من غير عمل بجوار لوسيل الفاتنة.. ما كان يجب أن

وانتصب راوول واقفا ضاما قبضته وهو يغلى من الغضب.. يجب أن يسرع بالعمل وأن ينقض على الآخر انقضاض الصاعقة وأن

يدبر وسيلة للدفاع قبل أن يفوت الأوان.. واندفع خارج البيت ومن الهزيمة برز رجل المناسبات العظيمة الذى لا يمكن أن يوقفه شىء.. وأسرع نحو قمة الشاطئ حيث ترك السيدكار، وأدارالمحرك وجلس على مقعد القيادة، واندفع الموتوسيكل فى دفعة غاضبة، كلا.. لا يمكن أن يكون الوقت قد فات (الآخر) لا يملك وسائل خارقة، ولكن لعله يستخدم سيارة.. إذن.. إن المسألة الآن مسألة سرعة، وهى مباراة كان راوول واثقا من كسبها.

راح الموتوسيكل ينطلق بأقصى سرعة وراوول يهتز فوقه بشدة ولحسن الحظ كان ضوء القمر يملأ الطريق بنوره لأن السيد كار لم يكن مزودا بأية مصابيح، وساقه راوول كيفما اتفق وهو يضغط على أسنانه وريح السباق تجمد العرق فوق جبينه، واندفع أكثر من مرة فوق العشب وأوشك أن يقع، ولكنه كان يعود إلى الطريق فى إصرار ويندفع فى جوف الليل.. وعندما رأى بيت فيكتوار الأبيض من بعيد لم يكن قد التقى بأحد ولم يسبقه أى أحد.. وكان وحده تماما، وكان واثقا من أنه وصل قبل (الآخر).. وضغط على الفرامل بشدة بحيث انزلق الموتوسيكل ودار به دورة كاملة ولكنه لم يعبأ بذلك ومضى نحو باب الحديقة وهو يترنح.. كان من الجنون أن يتملكه الخوف هكذا.. هل

كان يترك العنان للخوف لكى يستولى عليه هكذا فيما سبق؟

ولكنه لم يكن خوفا، وإنما كان حرصًا وحذرًا، بل لعله إفراط فى الحرص والحذر، وهو قد تصرف حتى الآن تصرفا أهوج وبدون ترو حقا، ولهذا عاهد نفسه وهو يدفع باب الحديقة أن يضاعف الحراسة بعد ذلك، وطرق باب البيت ثلاث مرات وهو ينتظر أن تفتح فيكتوار النافذة لأن نومها خفيف، وتلقى إليه بالمفتاح.

صاح فى صوت خافت:

- فيكتوار.. فيكتوار.. افتحى لى، وضاعف القلق خوفه وجف حلقه.. فيكتوار.

وتأهب لكى يحطم الباب وهز الأكرة فى غضب ولكنها دارت فى يده بسهولة وانفتح الباب.. لم يكن موصدا بالمفتاح.

- عجبًا!

وأضاء مصباحه وأسرع يرتقى السلم فى غير حذر.. كانت فيكتوار ممددة فوق فراشها موثقة اليدين ومكممة وفوق عينيها عصابة.. ولم يفكر راوول فى أن يضيع الوقت فى تخليصها وإنما اندفع إلى الغرفة المجاورة.. كان برونو هو الآخر موثق اليدين والقدمين وفى فمه منديل.

- يا للشيطان!.

وأفلتت قدمه إحدى الدرجات وكاد يقع لو لم يتشبث بالدرابزون.

وكبا على ركبته ونهض وهو يعرج.. واندفع إلى غرفة برناردان، كان المزلاج قد رفع من مكانه فدفع الباب بركلة من قدمه.. كانت الغرفة خالية واختفى العجوز.

أحس بالإعياء وتهالك فوق الفراش وأخذ رأسه بين يديه.. لم يكن هناك شك الآن فى أن الآخر قد عرف السر، فهو يملك الخطاب وبرناردان.. ولكن ما هو السر الذى مات بسببه كل هؤلاء الضحايا.. وعصف الألم براوول ونزف قلبه دما وأحس بحاجته إلى أن يلوذ.. بجوار فيكتوار، ومضى فقطع قيودها وأزال الكمامة عن فمها ودفن جبينه فى صدرها.

- فيكتوار.. عزيزتى فيكتوار.

وبقى جامد الحركة مدة طويلة كما أنه أراد أن يستمد من صدرها قوة جديدة، ولزمت فيكتوار الصمت ولم تفكر فى الشكوى وذراعها حول عنق ذلك الذى ربته وأطعمته وملأ حياتها صخبا ومآس.. ورفع رأسه أخيرا وقال:

- ماذا حدث؟

- ولكننى لا أدرى، كنت فى المطبخ، وسمعت حركة خلفى، وحسبت أنه برونو فلم ألتفت، وأحسست بشىء يوضع حول رأسى وتملكنى الخوف وفقدت رشدى على الفور.. وعندما عدت إلى الوعى وجدت نفسى هنا موثقة اليدين والقدمين كما وجدتنى.
- متى حدث هذا؟
- حسنا.. قبيل الغداء.. كنت أعد عجة لأن برونو يحبها مثلك.. وكان فى الحديقة يجمع لى بعض البصل.. ولكن ماذا حدث له.
- إنه فى الغرفة المجاورة موثق هو الآخر.. ولا ريب أنه يجد الوقت طويلا، انتظرينى هنا يا عزيزتى فيكتوار.. سآتي به.

ومضى راوول فقطع قيود برونو التعس، ونزع المنديل عن فمه.

- آه.. أهذا أنت أيها الزعيم؟ ولكن العجوز.. ماذا حدث له؟
- اختطفوه.
- هذه غلطتى أنا.. كان يجب أن أحترس، ولكن كان كل شىء هادئًا، ثم كنت أعرف أنك قريب.. كنت فى الحديقة وتلقيت ضربة على رأسى.

- ألم يتكلم برناردان؟
- هو؟.. إنه أشد عنادا من البغلة.. ولا حتى صباح الخير أو مساء الخير.
- سوف يتكلم الآن.. سوف يعمل خاطفه على ذلك ما دام لم يقتله كما.. توقف راوول.. لا حاجة به لأن يطلع برونو على مجرى الأحداث، فهو قد عانى الكثير حتى الآن.
- إننى آسف يا زعيمى.. آه.. وإننى لغاضب من نفسى.. غاضب جدا.
- لا عليك يا صغيرى.. ليس الذنب ذنبك، إذا كنا قد وقعنا على شيطان حقيقى.. بل إنك محظوظ، فقد كان فى مقدوره أن يقتلك أنت أيضا، وإننى أتساءل لماذا لم يقتلك.

وضغط بشدة على ذراع برونو ثم قال:

- وهذا هو الأمر الذى يخيفنى ويثير حيرتى.. هناك منطق لا أفهمه.. إن نقطة الضعف عند الذين تغلبت عليهم حتى الآن هى أنهم يفكرون مثلى، ولكننى أفكر أسرع منهم.. أما هو فإنه يحيرنى.
- وفيكتوار؟

- اطمئن.. إنها بخير.. أصابها من الخوف أكثر مما أصابها من الضرر.. إن هذا الوحش يعرف كيف يمتنع عن الأذى عندما يريد.. تعال لكى تراها.

ومضى به إلى غرفة فيكتوار، وكانت المرأة العجوز قد استردت قواها، وقالت تخاطب راوول:

- أرح قلبى وطمئنى يا حبيبى.. ألن تكف أبدًا.. ألست غنيا بما فيه الكفاية؟

أجاب راوول فى اكتئاب:

- ولكننى لا أسعى وراء المال ولا وراء المجد ولا وراء أى شىء.. إننى أذود عن نفسى فحسب.. سوف تبقين هنا يا فكتوار، وأعدك أنه لن يقع لك شىء بعد اليوم.. أما أنت يا برونو فعد إلى باريس.. وإذا احتجت إليك فسأبعث فى طلبك.

حسنا أيها الزعيم، ولكن علك لا تطردنى، فإننى مازلت جديرًا بأن أخدمك.. لو أنه لم يضربنى من الخلف.

وراح يدعك رأسه فى تفكير: عندما أفكر أننى لم أسمعه وهو يقترب منى.

قالت فيكتوار:

- هل تريد فنجانًا من القهوة؟
- نعم.. وأشكرك يا عزيزتى فيكتوار.

تمت